كيف نفهم القرآن؟

آية الله السيد محمد رضا الحسيني الشيرازي (دام ظله)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ).

المطلوب: فهم القرآن بشكل جديد!

هل استنفد القرآن أغراضه؟

هكذا يتساءل الكثير من الشباب، ويضيفون:

(لقد قام القرآن بدور كبير قبل أربعة عشر قرناً من الزمن، فهل يستطيع أن يقوم بدور تغييري في هذا العصر أيضاً؟! أم أنه قد تغير، وانتهى مفعوله؟).

والحقيقة: أن القرآن لم يتغير، ولم يستنفد أغراضه، فالقرآن لا يزال الكتاب الإلهي الذي هبط لإنقاذ البشرية، وهو يستطيع أن يقوم بأكبر دور في البناء الحضاري في الوقت الراهن.

ولكن الذي تغير هو المسلمون.

إن طريقة تعامل الأمة مع القرآن، وكيفية تلقيها لمفاهيمه ورؤاه، تختلف اليوم بشكل جذري عما كانت عليه بالأمس.

لقد كان المسلمون الأولون يفهمون القرآن كتاباً للحياة، ومنهجاً للتطبيق والتنفيذ، أما المسلمون اليوم فهم يتعاملون مع القرآن بشكل معاكس تماماً.

وهل يتحمّل القرآن ذنوب أتباعه الجاهلين؟!

* * * * *

والآن، لنرى كيف يفهم المسلمون اليوم القرآن الكريم؟ وكيف يتعاملون معه؟!

والجواب:

لقد عانت امتنا - منذ أمد بعيد - من مشاكل كثيرة في تعاملها مع القرآن الكريم، ولا زالت رواسب تلك

المشاكل موجودة حتى الآن، فلننظر ماذا كانت تلك المشاكل؟

١ - تحجيم التعامل.

ويعني ذلك: أن الأمة أخذت تحصر الاستفادة من القرآن في مجالات ضيقة ومحدودة، فالبعض اتخذ القرآن طريقاً للكسب، وباباً للارتزاق.

والبعض الآخر، اعتبره (صيدلية أدوية) فحسب، فإذا ضعف بصره، أو وجعت أسنانه، أو آلمته أمعاؤه، هرول إلى القرآن، ليتلو آيات معينة منه، حتى ترتفع بسببها هذا الأسقام، أما في غير هذه الحالة، فلا شأن له بالقرآن.

وهنالك مجموعات أخرى، لا تفتح القرآن إلا عند الاستخارة، أو حين السفر، أو عندما يموت أحد الأقرباء، وليس أكثر من ذلك!

وبالطبع، فإننا لا ننتقد الاستفادة من القرآن في هذه المجالات، وإنما ننتقد تحديد الاستفادة ضمن هذه الإطارات الضيقة، الصغيرة.

إن القرآن كتاب حياة، قال الله سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) الأنفال: ٢٤.

ولذلك؛ فإنه يجب الانتفاع منه في كل مجالات الحياة، وليس في مجال أو مجالين.

٢ - التلاوة السطحية للقرآن.

إن أمتنا تقرأ القرآن، وتستمع إلى تلاوته، ولكن كحروف بلا معان، وكلمات بلا مفهوم، ومن هنا فإنها لا تعمل بالقرآن، كما هو المطلوب، لأنها لم تفهم القرآن، والفهم هو المقدمة الطبيعية للعمل بالشيء.

بينما كان المسلمون الأولون لا يقرأون آية، حتى يتفكروا في أبعادها المختلفة، وحتى يَعُوها بشكل متكامل.

إن على من يقرأ القرآن أن يستثير عقله به، ويفقه ما وراءه من أبعاد كامنة، وإلا، فسينطبق عليه حديث الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) حين قال عن بعض الآيات:

(ويل لمن لاكها بين لحييه - وهما عظمتا الفم - ثم لم يتدبرها).

٣ - الاهتمامات القشرية.

ولأن أمتنا أهملت فهم (لباب) القرآن، اندفعت في طريق البحث عن القشور، فأخذوا بها يصرفون جهودهم على قضايا هامشية، كان الأحرى بهم أن يصرفوها في مجالات أكثر تأثيراً، وفائدة.

فهذا أحدهم يقضي آماداً طويلة من عمره لكي يجيب على الأسئلة التالية:

كم هي عدد كلمات القرآن؟

وكم هي حروفه؟

كم تكرر حرف الألف فيه؟

وكم تكرر حرف الباء؟

وكم تكرر حرف التاء؟

وهكذا، إلى آخر حروف الهجاء.

والله يعلم كم صرفت من جهود في سبيل معرفة هذه القضايا الثانوية، خصوصاً وأنها لم تتم في العصر الحديث، حيث يسّرت العقول الإلكترونية الأمر، بل تمت في عصور ماضية.

ثم، نجد أن كثيراً من الدراسات التي كتبت حول القرآن، لا تتناول إلا القضايا القشرية الهامشية.

وفي هذا المجال قمت بإحصاء (١٢٣) كتاباً حول القرآن الكريم، فوجدت أن (٣٧) منها تتحدث حول قضايا شكلية، مثل:

اختلاف القراءات، عدد آيات القرآن، الوقف والوصل، الجمع والتثنية، المقصور والممدود، طبقات القرّاء، نقط القرآن، الرومي والمعرَّب في القرآن، إلخ (١).

وهذا يعني أن أكثر من ربع الجهود والطاقات أهدرت في قضايا جانبية، لا تسمن كثيراً ولا تغني من جوع.

ومثال آخر للاهتمامات القشرية حين قراءة القرآن: الاهتمام بأشخاص القصص القرآنية، وبقضايا هامشية في حياتهم تُنسي الفرد القضايا الهامة والعِبَر التي هي الهدف من ذكر تلك القصص. ولا نحتاج إلى سرد الأمثلة في هذا المجال، إذ إن نظرة عابرة إلى واقعنا تكفي للكشف عن ذلك.

وهكذا، تتصدر القضايا الثانوية رأس القائمة، بينما تُنبذ القضايا الرئيسية وراء الظهور!

٤ ـ الفهم التجزيئي للقرآن.

ويعني ذلك: فهم القرآن بشكل تفكيكي، ينفصل بعضه عن البعض الآخر، وبعبارة أخرى فهم كل آية قرآنية وكأنها عالم مستقل قائم بذاته من دون ربطها بالآيات الأخرى.

وقد ترتب على ذلك نتائج خطيرة، سوف نشرحها في الفصل الثاني بإذن الله.

٥ ـ الفهم المصلحي للقرآن.

١ـ من الكتب التي تبحث حول هذه المواضيع: (عدد آي القرآن)، (اختلاف مصاحف الشام والحجاز والعراق)، (المقطوع والموصول)، (الجمع والتثنية في القرآن)، (إعراب القرآن)، (الكشف عن وجوه القراءات السبع)، (المحكم في النقط)، (المقنع في رسم مصاحف الأمصار)، (إملاء ما مَنّ به الرحمن في وجوه الإعراب والقراءات)، (جمال القراءة وكمال الإقراء)، (التستر في القراءات العشر)، (القول المهذب في بيان ما في القرآن من الرومي والمعرب)، (إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)، (نثر المرجان في رسم القرآن) و (رسم الشواذ)، إلخ. راجع (التمهيد في علوم القرآن) ج١، المقدمة.

ويعني ذلك:

أ - فهم آيات القرآن بشكل يكرّس مصالح الفرد في الحياة، ويبرّر أهواءه وشهواته.

ب - الاقتصار على جانب معين من (قيم القرآن) وإهمال سائر الجوانب، التي تتطلب من الإنسان العطاء، والتضحية.

مثلاً: فهم القرآن في جانبه الذي يتحدث عن العبادة، هي عادة درج عليها، ولا تكلفه شيئاً، ولكنه لا يفهم القرآن في جوانبه السلوكية، والعملية، والجهادية، لأن ذلك يكلفه مصالحة وأنانياته.

٦ - الفهم الميت للقرآن.

ويتم ذلك بفصل القرآن - بشكل كامل - عن الواقع المعاش، وربطه بقضايا ميتافيزيقية، أو قصص تاريخية لا تؤثر في الواقع القائم شيئاً.

٧ - الفهم بديلاً عن العمل.

إن القرآن الكريم (صراط) و (طريق)، وذلك يعني أن على الفرد أن يعبر من خلال القرآن إلى العمل بالقرآن، من هنا كانت الطلائع المسلمة في عصور الرسالة الأولى تفهم القرآن طريقاً للعمل، ومنهاجاً للمسير. ولكن أجيالنا الحاضرة تفهم القرآن هدفاً بذاته، وليس وسيلة للعمل به.

وهكذا، لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه، كما تنبأ بذلك الإمام علي (عليه السلام) من ذي قبل.

هذه هي أهم المشاكل التي عانت منها الأمة في تفاعلها مع القرآن، وهذه المشاكل هي التي سبّبت سقوط أمتنا في الحضيض.

وعلينا الآن أن ننفض عن أنفسنا غبار الماضي، ونبدأ في تعامل جديد مع القرآن، كما أراده الله سبحانه منا، حتى يغيّر الله ما بنا، ويأخذ بأيدينا إلى القمة.

ونأمل أن يكون هذا الكتاب خطوة إلى فهم القرآن بشكل آخر، والتعامل معه بشكل جديد.

والله الموفق المستعان.

محمد رضا الحسيني

قم المشرفة

٢ شوال - ١٣٩٩ هـ

الفصل الأول

أفلا يتدبرون القرآن؟

القرآن، حروف بلا معان!

في طليعة المشاكل التي تعاني منها أمتنا اليوم في تعاملها مع القرآن (القراءة السطحية) لهذا الكتاب المجيد.

إنها تتعامل مع القرآن كحروف وكلمات، وليس كمفاهيم تنبض بالحركة والحياة!

إنها تستمع إلى القرآن، وتتلو آياته، ولكن كتمائم سحرية، وطلسمات غيبية، لا يكاد أحد يفهم منها شيئاً!

وبذلك أصبح القرآن حروف بلا معان، وكلمات بلا مفاهيم.

من هنا، فإن أمتنا.

١ - تقرأ القرآن وخلال ذلك تفكر في كل شيء، إلا في معاني آياته، ولماذا تفكر؟!

أليس القرآن كتاباً متعالياً عن عقولهم ومداركهم؟! ثم، أليس التدبّر في القرآن حراماً! إذن، فلماذا يتعبون أنفسهم فيما لا فائدة فيه! بل بما فيه خطر السقوط في نار جهنم!

٢ - وعندما يقرأ الواحد منهم القرآن فإن أكبر همه - حينئذ - أن يتمّ القدر الذي يريد قراءته في أسرع وقت، ولذلك فهو يتصفّح أوراق القرآن بين حين وآخر ليرى كم صفحة بقيت إلى النهاية؟! وعندما ينتهي من القراءة يغلق القرآن، وآهة الفرح تنطلق عبر رئتيه.

ولكن، ماذا تغيّر فيه؟!

والجواب: لا شيء، إنه نفس ذلك الإنسان القديم، بكل ما فيه من رذائل وسلبيات!

والسؤال الآن هو: كيف أصبحت الأمة هكذا؟ وما هي العوامل والأسباب الكامنة وراء ذلك؟

والجواب:

١ - تشوّش الرؤية.

فقد رسخت في أذهان الكثيرين فكرة (تعالي القرآن عن الإدراك البشري)، إنه كتاب الله، وهل تستطيع ذرة تافهة في الوجود - اسمها: الإنسان - أن تصل إلى تلك القمم الرفيعة؟!

ولقد تطرّق البعض في هذا الاتجاه حتى قال: (إن القرآن كله متشابه بالنسبة إلينا، ولا يجوز لنا أن نتكلم في محكمه)!

وعندما سألت بعض الحاضرين:

ما تقول في (قل هو الله أحد)، هل هذه - أيضاً - تعتبرها آية متشابهة؟!

أجاب: بأن (أحد) ما معناه؟ وما مبدأ اشتقاقه؟ وما الفرق بينه وبين الواحد، وأطال الكلام في مثل هذا! (١).

١ـ راجع الأنوار النعمانية: ج١ ص٣٠٨: (ويبدو أنه نسي في الجواب أن يضيف كذلك: وما هو إعرابه؟ وما

وهذا يعني أن قوله تعالى: (إنَّ اللَّهَ يَأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) (١) أو قوله: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إحْسَاناً) (٢) أو قوله: (وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَا إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً) (٣) وأمثال هذه الآيات هي آيات متشابهة، لا يحق لأحد - أي أحد - أن يحاول فهمها، أو أن يتكلم فيها؟

إذن، ماذا بقي من القرآن؟!

لم يبق سوى آيات تُقرأ لشفاء أوجاع العين أو الأذن، وأخرى تتلى هدية إلى أرواح الأموات؟! وهل هذا هو الإسلام الذي وصفه الله تعالى بقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) (٤)؟!

إن (تشوّش الرؤية) هذه، تعتبر من أهم العوامل التي ساهمت في فصل الأمة عن روح القرآن، ومفاهيمه السامية.

٢ - وقد لعب عدم الاستعداد النفسي للتعمق الفكري، دوراً ما في هذا المجال، بالنسبة إلى بعض الأجيال المعاصرة.

إنها تبحث عن (سندويشة) طازجة تستطيع أن تتناولها بسهولة، أما (القضايا الفكرية المعمقة) فهي، تودّ كثيراً البحث فيها، إنه عصر السرعة، أليس كذلك؟!

ولكن، فات هؤلاء أن السطحية في الرؤية والتفكير قد ترضي شهوات الإنسان، ولكنها كثيراً ما توقعه في أخطاء قاتلة.

وفاتهم كذلك أن الملاحظة الدقيقة والتفكير العميق، هما الخطوة الأولى التي لا غنى عنها في أية مسيرة حضارية.

ولذلك نجد أن عالما غربياً قد يقضي من عمره عشرين عاماً أو أكثر وهو يراقب أمراً قد يبدو لنا تافهاً، ولكنه يخرج من ذلك بنتائج هامة، وكبيرة (٥).

٣ - ولا ننسى هنا الأثر الذي تركه ابتعاد الجيل المعاصر عن اللغة العربية الأصيلة.

فقد ساهم هذا العامل في عدم فهم هذا الجيل لبعض الآيات القرآنية، لأنه لم يعرف المدلول الحقيقي لبعض (الكلمات القرآنية). مما جعله يجهل معنى الآيات التي تضمّنت تلك الكلمات.

هذه كانت أسباب انفصال الأمة عن روح القرآن، ومفاهيمه، ولكن أهمها - كما أتصوّر - هو العامل الأول.

إذن، فلابد لنا أن نفصّل القول أكثر في (الشبهات) التي تولّد منها هذا العامل، بعد أن نستعرض بعض الأدلة التي تؤكد على (مشروعية) التدبّر في آيات القرآن الكريم؟! بل و (ضرورة) ذلك أيضاً.

هي أوجه قراءاته؟ وما هي حركاته وسكناته؟ وما هو معنى الله؟ وما هو الأصل الذي اشتق منه؟ إلى آخر هذه الأسئلة التي تشبه قصص ألف ليلة وليلة، تبدأ ولا تنتهي!

١- سورة النحل: ٩٠.

٢- سورة النساء: ٣٦.

٣- سورة الإسراء: ٣٢.

٤- سورة الأنفال: ٢٤.

٥- قضى أحد العلماء الغربيين عشرين عاماً من عمره وهو يراقب حياة النمل، وأعماله، وممارساته، وتوصل إلى نتائج هامة في هذا المجال.

التدبّر؟ أم التحجّر؟؟

هل يجوز لنا التدبّر في القرآن؟

سؤال قد يبدو غريباً لمن عرف واقع هذا الدين، وتلقى قيمه ومفاهيمه من منابعه الصافية، ولكن الواقع الذي نعيشه يجعل هذا السؤال أمراً طبيعياً إلى أبعد الحدود.

ولكي نجيب على هذا السؤال، لابد أن نعود إلى مصادر الإسلام النقية، ونستخرج منها الإجابة الحاسمة.

(١)

عندما نلقي نظرة سريعة على القرآن الكريم، نجد فيه دعوة صريحة إلى التدبر في آياته.

١ - في البداية، يؤكد القرآن أن الهدف من نزوله هو أن يتدبر الناس فيه، فيقول: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ) (١). ذلك لأن التدبر هو الطريق الطبيعي للعمل بما جاء في القرآن الكريم.

إذن، فمن الطبيعي أن يعتبر (التدبر) الهدف المبدئي لنزول القرآن.

٢ - وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية، جعل الله القرآن كتاباً بسيطاً، وميسّراً للفهم، وفي هذا المجال يقول القرآن: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ).

(فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) (٢)؟

ولأهمية هذا الأمر يكرّر القرآن هذه الآية الكريمة في سورة (القمر) أربع مرات.

ويقول أيضاً: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) (٣).

ويقول: (فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً) (٤).

٣ - والقرآن ليس - فقط - يدعو الناس إلى التدبر في آياته، وإنما يطلب منهم أن يمارسوا التدبر العميق أيضاً، كما نفهم ذلك من قوله سبحانه:

(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)؟

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً) (٥).

قال في الميزان: (الآية تحضيض في صورة الاستفهام. التدبر هو أخذ الشيء بعد الشيء، وهو في مورد الآية التأمل في الآية عقيب الآية، أو التأمل بعد التأمل في الآية [الواحدة] لكن: لما كان الغرض بيان أن القرآن

١- سورة ص: ٢٩.

٢- سورة القمر: ١٧.

٣- سورة الدخان: ٥٨.

٤- سورة مريم: ٩٧.

٥- سورة النساء: ٨٢.

لا اختلاف فيه، وذلك إنما يكون بين أزيد من آية واحدة، كان المعنى، الأول. أعني: التأمل في الآية عقيب الآية، هو العمدة، وإن كان ذلك، ينفي المعنى الثاني أيضاً.

فالمراد ترغيبهم أن يتدبروا في الآيات القرآنية، ويراجعوا في كل حكم نازل، أو حكمة مبينة أو قصة أو عظة أو غير ذلك، جميع الآيات المرتبطة به مما نزلت، مكيتها ومدنيتها، ومحكمها ومتشابهها، ويضموا البعض إلى البعض حتى يظهر لهم أنه لا اختلاف بينها.

فالآيات يصدق قديمها حديثها، ويشهد بعضها على بعض، من غير أن يكون بينها أي اختلاف مفروض، لا اختلاف التناقض بأن ينفي بعضها بعضاً أو يتدافعا، ولا اختلاف التفاوت بأن تتفاوت الآيتان من حيث تشابه البيان، أو متانة المعاني والمقاصد.

فارتفاع هذه الاختلافات من القرآن يهديهم إلى أنه كتاب منزل من الله، وليس من عند غيره) (١).

وإذا لاحظنا:

أ- أن هذه الآية نزلت في (المنافقين) و (المترددين)، كما يظهر من الآيات السابقة.

ب- أنها تدعو هؤلاء إلى التدبر في القرآن، حتى يطمئنوا بأنه من عند الله. ويزول بذلك نفاقهم، وتردّدهم.

ج- أن كشف عدم (الاختلاف) وعدم (التناقض) بين الآيات القرآنية المختلفة يحتاج إلى تدبر عميق، وتأمل وثيق.

إذا لاحظنا ذلك، وجدنا أن القرآن يفتح للناس أبواب (التدبر الذاتي الحرّ) في أعمق القضايا القرآنية، وليس هذا فقط، بل وأنه يدعوهم إلى ذلك!

فأنى يذهب أولئك الذين يحجرون على عقول الناس، ويصوّرون لهم القرآن الكريم مجموعة من الأحاجي والألغاز، التي لا يقترب أحد بعقله منها، إلا ضلّ، وكانت جهنم من وراءه، وساءت مصيراً؟!

وألا يعتبر ذلك، صرفاً للجماهير عما دعاها إليه القرآن الكريم؟!

٤ - ثم، يؤكد القرآن أن هنالك (أقفالاً معينة) تغلق قلوب البشر، وتصرفهم عن التدبر في آياته، ويقول:

(أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ)؟

(أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (٢)؟

ولكن، ما هي هذه الأقفال؟!

إنها أقفال الجهل، والهوى، والتهرب من المسؤوليات الثقيلة! (٣).

وكما كانت هذه الأقفال قديماً، فهي موجودة حديثاً، ولكن بصور جديدة، وأشخاص جدد، وشعارات جديدة!

وعلينا أن نحطم هذه الأقفال، ونفتح قلوبنا أمام نور الله المضيء، عن طريق التدبر في الآيات القرآنية

١- الميزان في تفسير القرآن: ج٥ ص١٩ ط٢.

٢- سورة محمد: ٢٤.

٣- أشار القرآن إلى هذه (الأقفال) في الآيات السابقة، فقال: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً)، (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)، (فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ).

الكريمة (١).

(٢)

وعندما نعود إلى الروايات نجدها تؤكد المعنى ذاته.

أ - فهي تأمر بالتأمل في القرآن الكريم، من أجل استخراج معارفه وكنوزه الدفينة.

ففي الحديث المروي عن النبي (صلى الله عليه وآله): (أعربوا القرآن - أي أحكموا إعراب أواخر الكلمات والجمل - والتمسوا غرائبه - أي تأملوا فيه، وتفهموا معانيه الغريبة).

وفي الكافي عن علي بن الحسين (عليهما السلام) أنه قال: (آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر ما فيها).

ب - ومن أجل ذلك ورد الأمر بترتيل القرآن لأنه أقرب إلى التركيز والتأمل من ابتلاع الحروف أثناء القراءة. فقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى: (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً): (بينه تبييناً، ولا تهذه هذ الشعر، ولا تنثره نثر الرمل، ولكن افزعوا قلوبكم القاسية، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة) (٢).

فالهذ: سرعة القراءة، ونثر الرمل هو: التباطؤ فيها بحيث لا ترتبط كلماتها، والتدبر في كلمات القراءة، هو التأمل في الآيات، والتدبر في كلمات الله.

وعن الإمام الصادق (عليه السلام): (وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً): قف عند وعده ووعيده، وتفكر في أمثاله ومواعظه).

ج - وتعطينا الروايات نماذج عملية في هذا المجال.

فعن الإمام الصادق (عليه السلام): (كان أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) يقرأ أحدهم القرآن في شهر واحد أو أقل، إن القرآن لا يُقرأ هذرمة، ولكن يرتل ترتيلاً، فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها واسأل الله الجنة، وإذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها، وتعوّذ بالله من النار).

وفي حديث آخر أن الإمام الرضا (عليه السلام) كان يقرأ القرآن في نشرة غير قصيرة، وعندما سُئل عن ذلك، أجاب: (ما مررت بسورة إلا فكّرتُ في مكيها ومدنيها، وعامّها وخاصّها، وناسخها ومنسوخها).

د - ونجد في بعض الروايات دعوة ضمنية إلى التدبّر في آيات القرآن، واستنباط الأحكام والقيم الإسلامية من خلال ذلك.

فعن الكافي والتهذيب والاستبصار: عن عبد الأعلى مولى آل سام قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): عثرت فانقطع ظفري، فجعلت على إصبعي مرارة (٣) فكيف أصنع بالوضوء؟

قال (عليه السلام): (يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل. قال الله عز وجل: (مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ

١ـ قال الطبرسي في مجمع البيان: (.. وفي هذا دلالة على بطلان قول من قال: لا يجوز تفسير شيء من ظاهر القرآن إلا بخبر وسمع). الميزان: ج١٨ ص٢٤١.

٢ـ البرهان، المجلد ٤ ص٣٩٧ ط٣.

٣ـ المرارة: شحمة شبه كيس، لازقة بالكبد تكون فيها مادة صفراء هي المرّة. (المنجد، مادة: مر).

مِنْ حَرَج) امسح عليه) (١).

والمفهوم من قول الإمام: (يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل) هو أن هذا الأمر يحتاج إلى السؤال، علماً بأن استخراج هذا الحكم يحتاج إلى التأمل، ذلك لأن الآية الكريمة تدل على عدم وجوب مسح الرجل مباشرة لأنه جرح، فيدور الأمر - في النظرة الأولية - بين سقوط المسح رأساً، وبين بقائه لكن مع سقوط شرط (مباشرة الماسح للممسوح).

إذن، فالآية بظاهرها لا تدل على لزوم المسح على المرارة.

لكن التأمل الدقيق يقضي بأن المسح - بما هو مسح - لا حرج فيه، وإنما الموجب للحرج هو اشتراط (المباشرة) في المسح.

إذن، فالمنفي في الآية الكريمة هو (المسح المباشر) وليس (أصل المسح).

ولذلك فالمفروض في هذه الحالة المسح على الإصبع المغطاة (٢).

وهنا يجدر بنا أن نشير إلى كلمة (وأشباهه) في قول الإمام: (يعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل). فالإمام (عليه السلام) لم يقصر الحكم على هذه الآية الكريمة، وإنما سحب الحكم إلى كافة الآيات القرآنية المشابهة.

وهكذا، نجد الإمام (عليه السلام) يدعو أصحابه إلى التأمل في الآيات القرآنية، واستنباط المفاهيم والأحكام الدقيقة منها.

(٣)

هذا كله، بالإضافة إلى:

١ - أن القرآن هو رسالة الله إلى الإنسان، كما قال سبحانه: (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاس) (٣)، (هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاس) (٤). ومن الطبيعي أن تكون الرسالة متناسبة مع فهم المرسل إليه.

٢ - القرآن يصدر خطاباته - عادة - بكلمة (يا أيها الناس) أو (يا أيها الذين آمنوا) أو ما أشبه، وليس صحيحاً أن يوجه أحد الخطاب لمن لا يفهم من كلماته شيئاً.

٣ - القرآن نزل حجة على الرسالة، وقد تحدّى النبي (صلى الله عليه وآله) البشر أن يأتوا بسورة من مثله. ومعنى ذلك أن العرب كانت تفهم القرآن من ظواهره، ولو كان القرآن من قبيل الألغاز لم تصح مطالبتهم بمعارضته، ولم يثبت لهم إعجازه، لأنهم ما كانوا يستطيعون فهمه.

٤ - لقد استوعب المسلمون الأولون معاني الآيات وفهموها بمجرد نزولها عليهم - باستثناء آيات محدودة

١- القواعد الفقهية للسيد الميرزا حسن البجنوردي: ج١ ص٢٠٩.

٢- هكذا أفاده العلامة المحقق الشيخ مرتضى الأنصاري (رضوان الله عليه) في مبحث (حجية ظواهر الكتاب) من كتابه القيم (فرائد الأصول).

٣- سورة البقرة: ١٨٥.

٤- سورة آل عمران: ١٣٨.

سألوا النبي (صلى الله عليه وآله) عنها - ولم يتعاملوا يوماً مع آيات القرآن تعاملهم مع الأحاجي والألغاز.

وكل هذا يعني أن القرآن نزل للجميع، وليس لفئة خاصة محددة، وأن الجميع يستطيعون أن يتدبروا في القرآن، ويستنبطوا مفاهيمه، كلٌ على قدر علمه وذكائه.

وماذا نصنع بهذه الشبهات؟

هنالك بعض الشُّبَه والإشكالات، التي قد تقفز إلى أذهان البعض للتدليل على عدم جواز التدبر في القرآن الكريم، بل ولاعتبار (التدبر) في القرآن معصية كبيرة تهوي بصاحبها في نار جهنم، وساءت مصيراً؟!

فما هي هذه الشبه؟ وما هي الإجابة عنها؟

الشبهة الأولى: الروايات نهت عن ذلك!

يقولون: لقد نهت الروايات الشريفة عن (التفسير بالرأي)، وهددت من يفعل ذلك بنار جهنم، وقالت:

(من فسر القرآن برأيه، إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ هوى أبعد من السماء) (١).

(من فسر برأيه آية من كتاب الله فقد كفر) (٢).

ولكن، ما هي النتيجة؟ عن ذلك يجيبنا حديث آخر فيقول:

(من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار) (٣).

وبعد هذه الروايات المشددة. هل يجرؤ مؤمن على التدبر في آيات القرآن الكريم؟!

هكذا زعموا، وبئس ما يزعمون!

ذلك لأن (التفسير بالرأي) لا يعني (التدبر في القرآن) إذ أن هذه الروايات لا يمكن أن تنهى عن نفس ما أمر به القرآن الكريم والروايات الأخرى (٤)، بل أنها تعني أحد الأمور التالية:

١ - أن يحمل الفرد آراءه الشخصية، على تعريف المعاني القرآنية بأحد الأشكال التالية:

(أ) حمل اللفظ القرآني على خلاف ظاهره.

(ب) حمل اللفظ القرآني على أحد احتماليه، دون أي دليل.

مثلاً: يحمل (القرء) في قوله تعالى: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ) (٥) على الطهر دون الحيض، باعتبار أن (القرء) لفظة مشتركة بين الطهر والحيض، من دون أي دليل.

١- مقدمة (البرهان في تفسير القرآن) ص١٦، طبعة دار الكتب العلمية - إيران.

٢- تفسير (البرهان) المجلد الأول ص١٩.

٣- تفسير (الصافي) المجلد الأول ص٢١، ط٥.

٤- راجع الفصل السابق: (التدبر، أم التحجر)؟

٥- سورة البقرة: ٢٢٨.

(ج) التعسف في تأويل الآيات القرآنية، وحملها على معاني ما أنزل الله بها من سلطان. وسوف نضرب على ذلك بعض الأمثلة فيما بعد.

أما الأسباب الكامنة وراء هذا (التحريف المعنوي) الذي يأتي تلبية لآراء الفرد فهي:

الأول: الأهواء الشخصية للفرد

إن بعض من لم يدخل نور الإيمان قلوبهم يحاولون أن يُخضعوا آيات القرآن لأهوائهم وشهواتهم، ولذلك فهم يحاولون فهم الآيات القرآنية (بآرائهم) أي حسب أهوائهم وشهواتهم.

فهذا (يحيى بن أكثم) - القاضي الشهير - كان يعاني من (الشذوذ الجنسي) حتى قال عنه ابن خلكان: (ألوط قاض بالعراق نعرفه)!

وكان محبوب المأمون، فقال له يوماً: لمن هذا الشعر:

قاض يرى الحد فـــي الزنـا ولا***يـــرى على من يلوط من بأس

فأجابه: الذي قال:

ما أحسب الجور ينقضي وعلى***الأمـــــــة وال مـــن آل عباس!

يحيى بن أكثم هذا، كان (يدين) عمله الشائن، ويتمسك بآية من القرآن في مشروعية ذلك! والآية هي قوله تعالى: (أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً) (١).

فكان يستفيد من ذلك إباحة (الزواج) وإباحة (اللواط) كذلك! ولا أعلم هل كان يفهم من ذلك (استحباب) هذا العمل الشائن أيضاً؟!

إن الآية الكريمة تقول: (يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيماً) (٢).

وهي تعني أن الناس تجاه (إنجاب الذرية) على أربعة أقسام، فقسم لا يولد له إلا الإناث وقسم لا يولد له إلا الذكور، وثالث: يولد له الاثنان معاً. ورابع: لا يولد له أي واحد منهما. بل يظل عقيماً!

ولكن يحيى بن أكثم اقتطع هذه الجملة من القرآن، وفصلها من سياقها العام، لكي يرضي أهواءه وشهواته (٣).

والآن، لنستمع إلى حوار بين يحيى بن أكثم، وبين الإمام الهادي (عليه السلام)، في هذا الصدد.

فقد سأل الإمام عن قوله تعالى: (أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً).

فأجاب الإمام (عليه السلام): (أي: يولد له ذكور، ويولد له إناث. يقال لكل اثنين مقرنين: زوجان، كل واحد منهما زوج).

١- سورة الشورى: ٥٠.

٢- سورة الشورى: ٤٩ - ٥٠.

٣- للمزيد من التفاصيل حول (السياق القرآني) راجع القسم الثاني من هذا الكتاب (الفهم التجزيئي للقرآن).

وأضاف الإمام وهو يضرب على الوتر الحساس: (ومعاذ الله أن يكون غنى الجليل [أي الله تعالى] ما لبست به على نفسك، تطلب الرخص لارتكاب المآثم (وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أثاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً). واستدرك الإمام قائلاً: (إن لم يتب) (١).

إن هذا الشكل من (التحريف المعنوي) هو الذي يصدق عليه (من فسر القرآن برأيه) أي حسب أهوائه وشهواته.

وهذا الشكل من التحريف لا تزال الأمة تعاني من آثاره السلبية حتى الآن.

مثلاً: يفسرون قوله تعالى: (وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) (٢) بأن على الفرد أن لا يعمل، ولا يجاهد، ولا يواجه الطواغيت لأن ذلك يعني (التهلكة) التي قد نهانا الله عنها.

وقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ) (٣).

بأن مسؤولية الفرد محصورة في إطار ذاته، ولا شأن له بالآخرين؟ فليذهب العالم كله إلى الجحيم! ليس ذلك مهماً! المهم أن يحافظ الفرد على صومه وصلاته، وبعض آخر من الواجبات الفردية وليس أكثر من ذلك.

ويقول شاعرهم في ذلك:

وما أبالـــي إذا نفسي تطاوعني***على النجاة بمن قد ضل أو هدى!

ويفسرون (الصبر) الذي ورد الأمر به كثيراً في القرآن الكريم والسنة الشريفة، بأنه يعني: الخضوع للطواغيت، والاستسلام لهم.

و (التقية) بأنها تعني: الجمود والتوقف.

و (التوكل) بأنه يعني: إيكال المسؤوليات إلى الله، والجلوس في زوايا البيوت، بانتظار (الفرج)!

و (الزهد) بأنه يعني: اعتزال الدنيا، وترك (الفاسقين) و (الكفار) يمرحون فيها ويلعبون، وانتظار ثواب الله في الآخرة، بدلاً من ذلك.

وهكذا، وهلمّ جرّاً.

وهذا هو أحد مصاديق (التفسير بالرأي) المنهي عنه في الروايات، والذي يعني حمل آيات القرآن الكريم على طبق (الآراء) التي تكونت للإنسان من خلال أهوائه وشهواته. إن القضية تبدأ بـ (هوى) يسعى خلفه الإنسان.

وعلى مر الزمن يتحول هذا (الهوى) إلى رأي ونظرية، ثم يحاول الإنسان تطويع (الدين) ليأتي مؤيداً، بل ومشجعاً على هذا (الرأي).

وهنا، يأتي الحديث الشريف: (من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار)!

١ـ سفينة البحار، للمحدث المتبحر الشيخ عباس القمي (رضوان الله عليه) المجلد الأول ص٣٦٧ ـ ٣٦٨، وأيضاً (الأذكياء) لابن الجوزي ص١٣٢.

٢ـ سورة البقرة: ١٩٥

٣ـ سورة المائدة: ١٠٥

الثاني: المسبقات الفكرية المركزة في عقلية الفرد

فهنالك كثيرون يقرأون القرآن، وأدمغتهم مشحونة بالأفكار والرؤى والمفاهيم المسبقة، ولذلك فهم لا يرون القرآن إلا من خلال أفكارهم، ولا يجدون في القرآن إلا ما يؤيد هذه الأفكار.

تماماً، كالذي يضع على عينه نظارة سوداء، إنه يرى جميع الأشياء بلون نظارته!

وكذلك هؤلاء، فهم يرون آيات القرآن، بلون المفاهيم القابعة في عقولهم.

إنهم يحاولون فهم القرآن كما تقتضي قيمهم وأفكارهم، بدل أن يكونوا (تلامذة) متواضعين أمامه.

إنهم يحاولون توجيه القرآن على حسب ما تقتضيه أفكارهم الواهية، بدل أن يحاولوا تهذيب أفكارهم على حسب ما تقتضيه مفاهيم القرآن الرفيعة.

وهذا هو عين الخطأ.

وهذا هو - أيضاً - أحد مصاديق (التفسير بالرأي) المنهي عنه ([1]).

ونجد في التاريخ الغابر، كما في التاريخ المعاصر أمثلة كثيرة على ذلك.

* وأول ما نجده في هذا المجال هو تفسير القرآن الكريم على حسب (الأفكار العقائدية) المسبقة، كما نلمس ذلك في أصحاب مذاهب من أمثال (المعتزلة) أو (الأشاعرة) أو (الباطنية) أو (الكرانية) أو غيرهم.

هذه الطوائف كانت تحمل آراءً خاصة في (الله) و (صفاته الثبوتية) و (صفاته السلبية)، وغير ذلك، وعندما اصطدمت عقائدها بالقرآن أخذت تفسّر الآيات القرآنية على حسب آرائها السابقة ([2]).

* ونجد كذلك تفسير آيات القرآن حسب (الفكر الصوفي) و (الذوق العرفاني)، والذي جاء من أجل تدعيم أفكار هذين الاتجاهين، وإعطائهما صبغة (شرعية).

ونجد ذلك جلياً في كتاب (الفصوص) الذي ألّفه (محيي الدين ابن العربي) تأييداً لأفكاره الصوفية الخاطئة. والذي يسعى فيه (ابن العربي) إلى تخريج المعاني التي يريدها من الآيات والأحاديث بطريقة خاصة في التأويل، فإن كان في ظاهر الآية ما يؤيد مذهبه أخذ بها، وإلا صرفها إلى غير معناها الظاهر.

فمثلاً: باعتبار أن مذهب ابن العربي هو (وحدة الوجود)، لذلك فهو يفسر قول هارون لأخيه موسى: (يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأسِي) بأن موسى بعد أن عاد من (الطور) ورأى قومه قد عبدوا العجل، عاتب أخاه هارون قائلاً له: لماذا لم تدع الناس يعبدون العجل؟ ألا تعلم أن الله سبحانه يجب أن يُعبد في أية صورة كان المعبود!

أو مثلاً، يفسر بعض العرفاء قوله تعالى: (يَدُ اللَّـهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) بأن اليد هي المعصومون الأربعة عشر، باعتبار أن (يد) تحمل الرقم (١٤) بحساب الحروف (الأبجدية)!

وكذلك أيضاً يفسر بعض العرفاء قوله تعالى: (اذهب إلى فرعون إنه طغى) بأن المقصود من (فرعون) ليس

١- والذي يدل على كون ذلك تفسيراً بالرأي هو أن الباء في قول الإمام (عليه السلام) (برأيه) هي باء السببية، بمعنى (فسر القرآن بسبب رأيه)، أي أن تفسيره للقرآن بهذا الشكل جاء نتيجة لـ (رأيه السابق)، بحيث لو لم يكن ذلك (الرأي) موجوداً مسبقاً لما فسر القرآن بهذا الشكل.

٢- راجع (التمهيد في علوم القرآن) ج٣.

شخصاً معيناً، بل المقصود به (القلب القاسي)، وهذه الآية تشير إلى مجاهدة هذا اللقب (١).

ومما يمكن إلحاقه بما نحن فيه تصريف بعض الصوفية معنى قوله تعالى: (رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ) إلى معنى الحب والعشق! (٢).

* وهنالك أيضاً تفسير القرآن الكريم حسب (الفكر المادي)، والذي حدث متأثراً بالفترة التي أخذت الحضارة الغربية تخطو فيها خطوات واسعة في المجالات العلمية والتكنولوجية، مما أبهر بريقها عيون بعض المسلمين.

هؤلاء أخذوا يفسرون القرآن بطريقة خاصة، ترك الاتجاه المادي بصماته واضحة عليها.

فالملائكة، والجن، والشياطين فسروها بـ (القوى الطبيعية) التي تسير الإنسان والكون.

ومعاجز الأنبياء، أخذت تعطي مدلولات جديدة، وتفسر بشكل جديد.

وهكذا، وهلمّ جراً.

* * * * *

إن كل هذه الأنواع من التلاعب بمعاني القرآن الكريم، وتوجيه الآيات القرآنية على حسب الأفكار (العقائدية المسبقة) أو (الأفكار الصوفية والعرفانية) أو (الاتجاهات المادية). كل هذه تعتبر من أنواع التفسير بالرأي، المرفوض أساساً من قبل الدين.

٢ - التسرع في تفسير الآيات القرآنية على حسب ما يظهر للفرد في بادئ الرأي، ووفق ما توحي إليه ظنونه الأولية، من دون الاستيقان، ومن دون الرجوع إلى سائر الآيات والروايات الواردة في ذلك الموضوع.

ذلك لأن الرأي في اللغة يعني: (الظن) و (التخمين) - كما تشير إليه بعض المصادر (٣) - فالتفسير بالرأي، وفقاً لهذا الاحتمال، يعني أن يفسر القرآن بسبب بعض الظنون النيئة، التي لم تنضج بعد. رغم: (إنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً)، كما يؤكده القرآن الكريم (٤).

ومما يجدر ذكره في هذا المجال: أن امرأة على عهد عمر بن الخطاب كانت تمارس الجنس مع مملوكها وهذا بالطبع أمر محرم في نظر الإسلام.

فذُكر ذلك لعمر. فأمر أن يؤتى بها، ولما جاءت سألها:

ما حملك على ذلك؟!

١- تفسير الصافي، المجلد الأول ص٢٢.

٢- مجمع البيان، المجلد الأول ص٢، ط٣.

٣- قال الراغب في (مفرداته): الرأي عبارة عن ترجيح أحد طرفي القضية بالظن والتخمين. وقال المحقق الأنصاري: (الظاهر أن المراد بالرأي هو الاعتبار العقلي الظني الراجع إلى الاستحسان)، راجع فرائد الأصول مبحث (حجية ظواهر الكتاب).

٤- وما يؤيد كون الرأي بمعنى الظن وروده بهذا المعنى في بعض الروايات: فعن ابن الحجاج قال: قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): (إياك وخصلتين فيهما هلك من هلك: إياك أن تُفتي الناس برأيك، أو تدين بما لا تعلم). (البحار: ج٢ ص١١٤ ط دار الكتب الإسلامية). والظاهر أن المراد بـ (الرأي) هنا الظن والتخمين.

فقالت: تأولت آية من كتاب الله، وهي: (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إلاَ عَلَى أزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُهُمْ فَإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ) (١).

وفي بعض الروايات: (كنت أراه يحل لي بملك يميني كما يحل للرجل المرأة بملك اليمين!) إلى آخر القصة (٢).

ومن هذا القبيل: أن يرى الإنسان قوله تعالى: (يَا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ) (٣).

فيبادر بالقول: إن فكرة الشفاعة هي فكرة خرافية، وإن القرآن الكريم قد نفاها من الأساس.

أو يرى قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) (٤).

فيتصور الله جسماً، ويتصور أن الله سار بتؤدّة وأناة، حتى تربع على عرشه العظيم!

وهكذا.

إن هذا الشكل من الفهم المتسرع للآيات القرآنية، على حسب ما يقتضيه الظن والتخمين، وبعض الاستحسانات العقلية الفارغة، هو ما نهت عنه الروايات السابقة، حسب الاحتمال الثاني.

٣ ـ فهم آيات القرآن الكريم المرتبطة بالأحكام، والآيات المتشابهة، والآيات المجملة وما شابه، بعيداً عن روايات أهل البيت (عليهم الصلاة والسلام).

ذلك لأنه في عهد الرسالة كان النبي (صلى الله عليه وآله) هو الذي يشرح للمسلمين الآيات الغامضة، المبهمة، وفي ذلك يقول الله سبحانه: (وَأنْزَلْنَا إلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ) (٥).

ولكن: ماذا بعد رحيل الرسول؟!

لقد خلف النبي من بعده كتاب الله، والعترة، وقد قرن النبي (صلى الله عليه وآله) القرآن بالعترة في أحاديث كثيرة (٦) ومن هنا، فإن آية محاولة للفصل بينهما، هي محاولة خاطئة.

ويؤيد ذلك، أن كثيراً من الروايات التي ورد فيها النهي عن (التفسير بالرأي) جاءت رداً على أولئك الذين كانوا يحاولون فهم القرآن بعيداً عن أهل البيت، بل ونقيضاً لهم في بعض الأحيان، كأبي حنيفة، وقتادة، وغيرهما.

كما جاءت مجموعة من الروايات في هذا الصدد.

منها: ما روي عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): (إنما هلك الناس في المتشابه لأنهم لم يقفوا على

١ـ سورة المؤمنون: ٥ و٦.

٢ـ الغدير للعلامة الأميني: ج٦ ص١١٨، ط٣.

٣ـ سورة البقرة: ١٥٤.

٤ـ سورة طه: ٥.

٥ـ سورة النحل: ٤٤.

٦ـ رويت هذه الأحاديث من كتب الفريقين، راجع: (المراجعات) للعلامة شرف الدين ص١٩ ـ ٢٥.

معناه، ولم يعرفوا حقيقته، فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم، واستغنوا عن مسألة الأوصياء فيعرفونهم).

ومنها: ما روي عنه أيضاً: (إنهم [أي المخالفين] ضربوا القرآن بعضه ببعض، واحتجوا بالمنسوخ، وهم يظنون أنه الناسخ، واحتجوا بالخاص وهم يظنون أنه العام، واحتجوا بأول الآية وتركوا السنة في تأويلها ولم ينظروا إلى ما يفتح به الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره. إذ لم يأخذوه عن أهله، فضلوا وأضلوا) (١).

وهكذا.

نجد أن فهم القرآن - في طوائف من الآيات - بشكل مستقل، وبعيداً عن أهل البيت يعتبر (تفسيراً بالرأي)، حسب الاحتمال الثالث.

والسؤال الآن هو:

لقد برزت أمامنا حتى الآن ثلاثة احتمالات في معنى (من فسر القرآن برأيه) وهي:

١ - فسّر القرآن بآرائه الشخصية، وذلك بقسمين: فسر القرآن بهواه، وفسر القرآن بمسبقاته الفكرية.

٢ - فسر القرآن بظنه.

٣ - فسر القرآن بفهمه المستقل عن أهل البيت (عليهم السلام)؟!

فأي واحد من هذه المعاني هو المقصود؟!

والجواب: يمكننا أن نستفيد من إضافة كلمة (رأي) إلى (الهاء) في قول الإمام (برأيه) معنى عاماً يشمل هذه المعاني جميعاً، وذلك المعنى هو:

(تفسير القرآن بالرأي الشخصي، النابع من الذات، لا مع الواقع).

وهذا المعنى العام يشمل:

القسم الأول من المعنى الأول، لأنه تفسير للقرآن بالهوى، وليس بالواقع.

والقسم الثاني من المعنى الأول، لأنه تفسير للقرآن بالتعصب والأفكار السابقة، وليس بالواقع.

والمعنى الثاني، لأنه تفسير للقرآن بظنه الشخصي. وليس بالواقع.

والمعنى الثالث، لأنه تفسير للقرآن بالأفكار الشخصية، وليس بالواقع (الذي مقياسه هو: أهل البيت عليهم الصلاة والسلام).

وهكذا.

نجد أن الروايات التي تنهى عن (التفسير بالرأي) لا تقصد بذلك النهي عن التدبر في القرآن الكريم، وإنما تنهى عن (تفسير القرآن بالرأي الشخصي النابع من الذات، لا من الواقع، بمختلف صوره وأشكاله).

الشبهة الثانية: كيف نعرف العام والخاص، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ؟

يقولون:

إن في القرآن عاماً وخاصاً، ومطلقاً ومقيداً، وناسخاً ومنسوخاً، وهل يعرف ذلك إلا الراسخون في العلم؟!

١- فرائد الأصول، مبحث حجية ظواهر الكتاب. وأيضاً: مقدمة (البرهان) ص١٩، طبعة دار الكتب العلمية - إيران.

والجواب:

١ - إن الآيات التي طرأ عليها التخصيص، أو التقييد أو النسخ. هي آيات محدودة ولا يمكن أن تسحب الحكم المنطبق على بعض الآيات، على القرآن الكريم ككل (١).

٢ - إن أغلب - أو كل - الآيات التي طرأ عليها التخصيص، أو التقييد، أو النسخ هي الآيات التي تتناول (الأحكام الشرعية). كأحكام القتال والطلاق والزنا والعدة وما أشبه. ومن الطبيعي أن الاستنباط من (آيات الأحكام) تختص بالفقهاء والمجتهدين، ولا يحق للرجل العادي أن يستنبط منها، وحديثنا هنا في التدبر في الآيات الأخرى، تلك الآيات التي تتناول القضايا الخلقية، والاجتماعية، والثقافية، وما أشبه. وليس في (آيات الأحكام).

٣ - هذا، بالإضافة إلى ما سبق من دعوة الدين إلى التدبر في آيات القرآن الكريم (٢).

الشبهة الثالثة: الذين أخطأوا في فهم القرآن!

يقولون:

لقد أخطأ الكثيرون في فهم الآيات القرآنية، وانحرفوا بذلك عن سواء السبيل، فمن يضمن لنا عدم الوقوع في الخطأ، كما وقعوا هم؟!

أليس من الأفضل أن ندفن رؤوسنا في الرمال، ولا ندور حول مواضع الزلل؟

والجواب:

لقد أوضحنا - بشكل ضمني - فيما سبق أن خطأ البعض في فهم القرآن يعود إلى أحد العوامل التالية:

١ - تحكيم (الأهواء الشخصية) في تفسير القرآن.

٢ - التعصّب لـ (المسبقات الفكرية) المغروسة في أعماق الفرد، وبالتالي تطويع القرآن لهذه الآراء، بدلاً من تطويع هذه الآراء للقرآن.

ومما يدخل ضمن هذا الإطار (التعصب للإفكار المذهبية)، ومحاولة تفسير الآيات القرآنية بشكل يؤيد هذه الأفكار.

٣ - التسرع في اعتناق الأفكار التي تظهر للإنسان في بادئ الرأي، وعدم التدقيق في صحة هذه الأفكار أو سقمها.

٤ - عدم الرجوع إلى روايات أهل البيت (عليهم السلام) في الآيات المجملة، أو الآيات المتشابهة، وما

١- مجموع الآيات التي ادعوا نسخها هي (٢٢٨) آية تقريباً وقد بحث الأستاذ الشيخ محمد هادي في ذلك فوجد أن (٢٠) آية منها فقط هي المنسوخة، بينما الـ (٢٠٨) الباقية ليست منسوخة، (راجع: التمهيد في علوم القرآن: ج ٢، ص٢٩٦ - ٤٠٤)، وإذا قارنا هذه الكمية الضئيلة بمجموع آيات القرآن التي تبلغ (٦٦٦٦) آية - على المشهور - لوجدنا أنها لا تشكل سوى قطرة صغيرة في بحر خضم. ويمكن أن نقول مثل ذلك القول - بشكل تقريبي طبعاً - في الآيات المخصصة وفي الآيات المقيدة.

٢- راجع فصل (التدبر أم التحجر)؟

شابه.

أما عندما يكون الفرد تلميذ القرآن المتواضع، الذي يكيف أهواءه وأفكاره وفق قيم القرآن ومبادئه، وليس العكس. ويتأنى في تقبل ما يخطر على باله من أفكار، ويعود إلى أهل البيت (عليهم السلام) فيما تشابه عليه، عندئذ، تقل نسبة الخطأ في فهم القرآن، إلى حدود كبيرة. ويمكن أن تنعدم بالتالي.

الشبهة الرابعة: القرآن كتاب غامض، فكيف نفهمه؟

يقولون:

القرآن كتاب يكتنفه الإبهام والغموض، ففيه غموض في الكلمة، وغموض في المعنى، وغموض في المغزى، فكيف نستطيع بعد ذلك أن نفهمه؟!

لقد نزل القرآن قبل ألف وأربعمائة عام، وخاطب جيلاً قد مات منذ أمد سحيق، فهل تستطيع أجيالنا أن تفهم القرآن الآن؟!

والجواب:

١ - إن أغلب الآيات القرآنية هي آيات واضحة، في الكلمات، والمعاني، والأهداف، كما قال سبحانه: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ)؟ فبإمكان أي فرد أن يتصفح القرآن الكريم ليجد هذه الحقيقة ماثلة أمام عينيه.

٢ - ولكن، تظل هنالك مجموعة من الآيات غامضة، ومبهمة، وذلك يعود إلى ابتعاد أمتنا عن اللغة العربية الأصيلة، وليس إلى القرآن ذاته (١).

والسؤال الآن هو: كيف نفهم هذه الآيات الغامضة؟

والجواب: هنالك ثلاثة طرق:

أ - الرجوع إلى معاجم اللغة، واستخراج معاني الألفاظ منها، طبقاً لما سنشرحه في الفصل القادم بإذن الله.

ب - التدبر في السياق العام للآية، واستنباط معنى الكلمة أو الآية من خلال ذلك.

ورغم أن السياق ليس عاملاً نهائياً وحاسماً في فهم الآيات القرآنية. إلا أنه يعيننا كثيراً في هذا المجال.

مثلاً: إذا أردنا التعرف على معنى (نفش) في هذه الآية: (وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) (٢) لم يكن علينا إلا قياس كلمة (نفشت) بالحرث والغنم والحكم، مما نعرف أنه إتلاف الحرث.

أو إذا أردنا اكتشاف معنى (حول) في قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ

١- هذا بغض النظر - طبعاً - عن الآيات المتشابهة التي يفتقر فهمها إلى التفكير المنطقي السليم وإلى مراجعة روايات أهل البيت (عليهم السلام).

٢- سورة الأنبياء: ٧٨.

الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً) (١) فما علينا إلا أن ننظر إلى سياق الآية الكريمة لكي نكتشف أن معنى (الحول) هو (التحول) و (الانتقال).

أو إذا أردنا فهم معنى (الإملاق) في قوله تعالى: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) (٢) فما علينا إلا أن ننظر إلى الجو العام المحيط بالآية لنعرف أن معناه هو (الفقر) و (الحاجة)، وهكذا.

ج - التفسير.

إن لمعرفة الإطار التاريخي الذي هبط فيه الوحي، والمورد الذي نزلت فيه الآية الكريمة، الأثر الكبير في فهم معاني (الآيات القرآنية)، والأهداف التي نزلت من أجل تكريسها هذه الآيات.

ذلك لأن القرآن نزل بشكل تدريجي، واكب فيه الأحداث التي واجهها المسلمون في عهد الرسالة، ولم ينزل على الناس مرة واحدة، ولذلك كان من الطبيعي أن تحمل كل آية طابع الظروف التي هبطت فيها.

وكتب التفسير هي التي تسلّط الأضواء على هذه الظروف، وتغطي بالتالي الأبعاد الحقيقية للآية الكريمة، (وذلك بالإضافة إلى الفوائد الهامة الأخرى التي تمنحنا إياها كتب التفسير).

هذه كانت أهم الشبهات التي قد يتمسك بها للتدليل على عدم جواز، وحتى عدم إمكان (التدبر) في الآيات القرآنية.

وقد عرفنا من خلال هذا المبحث (إمكان) و (مشروعية) التدبر في القرآن الكريم.

ويبقى أن نشرح ضرورة التدبر في القرآن، وهذا ما يتكفل به الفصل القادم، بإذن الله.

معطيات التدبر في القرآن

لماذا التدبر في القرآن؟

هكذا يتساءل البعض، ويضيفون:

إننا نقرأ القرآن، ونستمع إلى تساؤلاته كل صباح ومساء، أفلا يكفينا هذا؟!

والجواب:

١ - التدبر في القرآن، هو الطريق الوحيد للاستفادة من آياته، والتأثر بها.

إن القراءة الميتة للقرآن لا تعني أكثر من كلمات يرددها اللسان دون أن تؤثر في واقع الفرد التأثير المطلوب.

أما (التلاوة الواعية) فهي تتجاوز اللسان، لكي تنفذ إلى القلب، فتهزّه، وتؤثر في اتجاهه.

لقد كان أولياء الله العارفون يتلون القرآن بوعي، فكانت جلودهم تقشعر، وقلوبهم ترتجف حين يقرأون آية، بل ربما كانوا يُصعقون لعظمة وقع الآية في نفوسهم.

لقد تلا الإمام الصادق (عليه السلام) آية في صلاته وردّدها عدد مرات فصعق صعقة، ووقع مغشياً عليه،

١- سورة الكهف: ١٠٧ - ١٠٨.

٢- سورة الإسراء: ٣٢.

ولما أفاق سأل عن ذلك، فقال:

(لقد كررتها حتى كأني سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت لها جسمي، لمعاينة قدرته).

وكانت الآية هي قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

بل إن التدبر لحظات في القرآن الكريم، كان منعطفاً تغييرياً كبيراً، في حياة الكثير من العصاة والمجرمين.

فهذا (الفضيل بن عياض) كان في بداية حياته مجرماً خطيراً، وكان ذكر اسمه كافياً لإثارة الرعب في القلوب، لقد كان يقطع الطريق على القوافل، ويسلب المسافرين كل ما يملكون، وذات يوم وقعت نظراته على فتاة جميلة، فصمم في نفسه أمراً.

وفي نفس تلك الليلة، كان يتسلق جدار ذلك البيت الذي تسكن فيه الفتاة، وهو ينوي الاعتداء عليها واغتصابها، وفي هذه الأثناء، تناهى إلى مسامعه صوت يتلو هذه الآية الكريمة: (أَلَمْ يَأنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ) (١).

فأخذ يفكر في الآية بضع ثوان، وأخذ يردد مع نفسه: (يا رب، بلى قد آن) (٢). ثم هبط من الجدار، وتولى بوجهه شطر المسجد فاعتكف فيه إلى الأبد.

إن التدبر في آية واحدة، حوّل هذا الرجل من مجرم متمرس بالجريمة، إلى معتكف في محراب العبادة، فكيف إذا تدبر الإنسان في كل القرآن، أفلا يتحوّل من رجل إلى ملك، بل إلى من هو فوق درجات الملك؟!

٢ - التدبر في القرآن هو الطريق الوحيد لفهم (قيم القرآن) و (أفكاره) و (مبادئه) كما أنزلها الله سبحانه.

إن هنالك خيارات صعبة وعديدة تطرح أمام الفرد، وأمام الأمة، كل يوم، ولاختيار الطريق السليم بين هذه الخيارات، لابد من الرجوع إلى القرآن، والتدبر في آياته.

ومن هنا، يقول الله سبحانه: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (٣).

ومن هنا أيضاً أطلق القرآن على نفسه اسم (الفرقان) ذلك لأنه يفصل ويفرّق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ولكن، لمن؟!

الجواب: لمن يفهم آياته، ويتدبر فيها.

٣ - هنالك مشاكل كثيرة يصطدم بها الإنسان في حياته، سواء المشاكل الفردية التي لا تتعدّى إطار الفرد ذاته، أو المشاكل الاجتماعية التي تصيب الجميع.

والقراءة الواعية للقرآن الكريم، والتدبر في آياته، يقومان بدور مزدوج في هذا المجال:

فهما يقومان من جانب، بتطهير ما علق في نفس الإنسان من سلبيات.

١- سورة الحديد: ١٦.

٢- سفينة البحار - المجلد الثاني - ص٣٦٩.

٣- سورة الإسراء: ٩.

ومن هنا يقول الله سبحانه:

(قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ) (١).

(وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) (٢).

ويقومان من جانب آخر، بوضع البرامج السليمة، للخروج بحل ناجح لهذه المشاكل.

٤ ـ وأخيراً، فإن التدبر في القرآن هو الطريق للعمل بما جاء فيه، وذلك لأن العمل بالقرآن يتوقف على فهمه، وفهم القرآن لا يمكن إلا بالتدبر في آياته.

ومن هنا، فإن الذين لا يتدبرون في القرآن سوف يفوتهم تطبيق الكثير من مبادئ الدين في حياتهم العملية، وهم لا يشعرون.

منهج التدبر في القرآن

قبل الحديث عن (منهج التدبر في القرآن)، لابد أن نعترف أن استعراضنا لهذا المنهج ـ هنا ـ هو استعراض ناقص، ويعود ذلك إلى عاملين:

أحدهما: صعوبة الإحاطة بالمنهج بشكله المتكامل.

فالقرآن بحر عميق، لا يدرك غوره ولا تفنى عجائبه، كما يقول الإمام علي (عليه السلام). ومن هنا فإن الإحاطة به أمر صعب، إن لم يكن أمراً مستحيلاً.

وثانيهما: إن بعض هذه المناهج قد تكون عسيرة الهضم على بعض القراء الكرام، ذلك لأن فهمها يرتبط باستيعاب علوم معينة، ومن هنا تركنا التعرض إلى تلك المناهج في هذا البحث.

وبعد معرفة هذه الحقيقة، ينتصب السؤال التالي:

ما هو منهج التدبر في القرآن؟

والجواب:

إن المنهج يعتد على طرح مختلف التساؤلات حول (الظواهر القرآنية)، فكل آية من القرآن الكريم مجال خصب لطرح تساؤلات عديدة، وعلى الفرد الذي يحاول التدبر في القرآن أن يستثير في عقله هذه التساؤلات، ومن ثم يحاول الإجابة عليها.

وهذه التساؤلات يجب أن تتناول ما يلي:

١ـ سورة يونس: ٥٧.

٢ـ سورة الإسراء: ٨٢.

١ - معنى الكلمة.

٢ - تخير الكلمة.

٣ - موقع الكلمة.

٤ - الشكل الخارجي.

٥ - التسلسل المعنوي، والتناسب في الانتقال من غرض إلى غرض.

٦ - التصنيف.

وسنشرح - فيما يلي - هذه الأمور:

أولاً: معنى الكلمة

يتكون القرآن الكريم من كلمات، تماماً كما يتكون البناء من لبنات، ولذلك فمن الطبيعي أن تكون الخطوة الأولى لفهم القرآن الكريم، هي التدبر في الكلمات القرآنية.

ومع الأسف، فإن كثيراً ممن يقرأون القرآن لا يقومون بهذه المهمة، ولذلك فهم:

١ - إما أن لا يفهموا معاني الكلمات.

٢ - أو يفهمونها بشكل مغلوط.

٣ - أو بشكل باهت، لا يعكس المدلول الدقيق للكلمة.

وعن هذه الظاهرة الثالثة، ننقل فقرات من كتاب (بحوث في القرآن الحكيم):

(بالرغم من أن اللغة العربية أشمل وأدق وأجمل اللغات في أنها تعطي لكل حقيقة لفظاً قريباً يتناسب معها تماماً، وبالرغم من أن العرب اختاروا لكل تطور ينشأ في شيء لفظاً يخصه، ويوحي إلى تلك الحقيقة متلبسة بذلك التطور.

بالرغم من هذا وذاك، فإن الكلمات العربية اكتنفها الغموض مما أفقد إيحاء اللفظ وظلاله. فلم نعد - نحن العرب - نملك رهافة الحس [لنعرف الفرق] الذي كان بين لفظتي (قرب - اقترب) أو (فكر - افتكر) حتى لو لم نعد نعرف الفرق بين كلمتي (سار) و (سارب) و (دلك) و (أولج) وما أشبه.

ويعود ذلك إلى:

أولاً: كثرة استعمال الألفاظ في غير معانيها الأدبية. فحينما يستعمل العربي كلمة (قرب) في المجال المحدد لـ (اقترب) أو حتى كلمة (سار) في موضع كلمة (سارب) تختلط ظلال الكلمتين مع بعضها وتضيع الإيحاءات الخاصة.

ثانياً: تعلقت أذهاننا بمعاني جامدة ومحددة كألفاظ عربية، وفقدنا الشعور بمحور شعاع الكلمة. فنحن حينما نستعمل كلمة (جن) يتبادر إلى أذهاننا المخلوق الغريب دون أن نفكر ولا لحظة حول ارتباط كلمة (ج ن ن) مع هذا المخلوق. ونستعمل كلمة (جنين) دون أن نعرف أن هناك علاقة تتناسب بين معنى الولد في بطن أمه (جنين) ومعنى المخلوق الغريب (جن) وهي أن كليهما مستور عن أعين الناس.

وكذلك نطلق لفظة (الخمر) للدلالة على السائل المسكر، ونطلق لفظة (الخمار) للدلالة على الساتر لوجه

المرأة، ولا نلاحظ أن علاقة اللفظين ببعضهما إنما هي من ناحية الستر، فهذا يستر الوجه وتلك تستر العقل.

وهكذا تتداخل إيحاءات اللفظ العربي ببعضه، ونفقد بذلك فهم أهم سمة من سمات اللغة العربية التي لو فهمناها يسهل علينا فهم القرآن كثيراً.

من هنا يتوجب علينا الخروج من الفهم التقليدي للألفاظ العربية نحو أفق أسمى، يُستشمّ المعنى الإيحائي العام منها.

وهذا الخروج ضروري لفهم القرآن الحكيم، إذ أنه في قمة البلاغة التي تتلخّص في رعاية التناسب الشامل بين الموضوع واللفظ، وبين الواقع والتعبير، فيكون كشف المنحنيات التفسيرية والإيحاءات اللفظية ذا أهمية خاصة في القرآن أكثر من أي كتاب آخر، لأنها معنية فيه بشكل لا يوصف.

يبقى السؤال عن كيفية الخروج؟

والجواب: على الفرد:

١ - أن يتجرّد أولاً عن موحيات المناخ الفكري الذي يصور له معنى جامداً للفظ.

٢ - ثم الرجوع إلى المادة الأساسية التي تجمع كل التصريفات للكلمة، والتفكير في المعنى المناسب لربط هذه المجموعات باللفظ، فمثلاً: نجمع معاني يعرشون، عرشاً، معروشات، ونعود إلى تصريفات اللفظ الأخرى، عريش، وعرش، وما أشبه لتنشيطها جميعاً من البناء الفوقي، لأنه يجمع معاني سرير الملك والبناء، والمرفوع، وسيباط الكرم والخيمة من الخشب، هذه المعاني التي ذكرتها العرب لهذه الألفاظ.

٣ - قياس موارد استعمال اللفظ ببعضها، ليعرف المعنى المشترك الذي يمكن أن يتصور جامعاً بين هذه الموارد، ومن الطبيعي أن يعتبر في الاستعمال أن يكون على لسان أهل اللغة المعتنين بالبلاغة.

وإذا كان قياس موارد الاستعمال ببعضها أفضل السبل لمعرفة المعنى الحقيقي للفظ ما، فإن أفضل قياس من هذا النوع هو قياس موارد استعمال الكلمة في القرآن ذاته، إذ أنه ولا ريب ذروة البلاغة العربية التي عجز عن تحديها أبلغ فصحاء العرب.

من هنا، يجدر بالذي يريد التدبر في القرآن ذاته، أن يبحث عن المعنى المحدد للكلمة في آيات القرآن ذاته. ليجد - بقياس بعض المواضع المستعملة فيها الكلمة ببعضها - المعنى الدقيق الذي يقصده القرآن) (١).

وفيما يلي.

نستعرض بعض الأمثلة حول (التدبر في الكلمة القرآنية).

(١)

يقول القرآن الكريم: (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً) (٢).

ماذا تعني كلمة (حنيف) هنا؟

الكثيرون يتلون هذه الآية الكريمة، وعندما تمر أمام أعينهم كلمة (حنيف) فإنهم لا يفهمون منها شيئاً، أو

١- بحوث في القرآن الحكيم: ص٣٥ - ٣٨.

٢- سورة آل عمران: ٦٧.

يفهمون منها معنى خاطئاً.

ولكي نفهم معنى هذه الكلمة، نعود إلى اللغة، لنجد المواضع التي استخدمت فيها هذه الكلمة، ثم لنستنبط من هذا المجموع، المعنى العام.

فنجد في اللغة: (حنف: مال، وحنف رجله: جعلها حنفاء، وحنف: اعوجت رجله إلى داخل فهي حنفاء وحوانف، والحنفاء: القوس) وهكذا، ونستنتج من كل ذلك أن معنى (حنف) هو: مال.

ونعود إلى التفسير لنجده يؤكد المعنى ذاته (١).

وعلى هذا، فيكون معنى الآية: (إن إبراهيم كان مائلاً عن كل المبادئ الزائفة، مسلماً لله تعالى وحده). ونستنتج من ذلك أن للإيمان دعامتين:

رفض كل القيم، والأصنام، والمبادئ الزائفة.

والتسليم المطلق لله سبحانه، وحده لا شريك له.

فالإيمان يتلخّص في كلمة رفض، تشمل كل الإلهة والأصنام: (لا إله).

واستثناء واحد ينبثق من ضمير هذا الرفض المطلق: (إلا الله).

وبهذا، تنهار كل الحلول الوسطى، وكل المحاولات التوفيقية، بين الله، وبين الأصنام، مهما كان اسم هذه الأصنام أو شكلها.

وبهذا أيضاً نعرف خطأ أولئك الذين يحاولون الجمع بين الله، وسائر الآلهة.

(٢)

يقول القرآن الكريم: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ) (٢).

قد يبدو للنظرة العابرة أن كلمة (الملأ) في هذه الآية تعني (الجماهير)، وعلى هذا الأساس فإن الذين كفروا بـ (نوح) وغيره من الأنبياء، كانوا: عامة الناس (٣).

وهنا قد يثار السؤال التالي:

لماذا كفرت الجماهير برسالات الأنبياء، ألم تكن رسالات الأنبياء تدعو الناس إلى فطرتهم، وضمائرهم؟!

والحقيقة: أننا لو فتشنا حول مدلول كلمة (الملأ) لوجدنا أنها تعني: (أشراف القوم الذين يملأون العيون والصدور هيبة)، كما تؤكده معاجم اللغة وكتب التفسير (٤).

١- راجع تفسير (الصافي) المجد الأول، ص٢٧٠.

٢- سورة الأعراف: ٥٩ - ٦٠.

٣- استخدمت كلمة (الملأ) حوالي (٣٠) مرة في القرآن الكريم، خلال استعراض قصص الأنبياء، وطبيعة مواجهتهم مع المشركين، وغير ذلك.

٤- راجع: المنجد، مادة (ملأ). و (الصافي) المجلد الأول ص٥٨٨. و (الميزان) ج٨ ص١٧٤. ومن الجدير أن نشير هنا إلى ما قاله الفخر الرازي في تفسيره: والملأ: الكبراء والسادات الذين جعلوا أنفسهم أضداد الأنبياء.

ومن هنا، نستنتج: أن الذين كفروا برسالات الأنبياء لم يكونوا (الجماهير)، وإنما كانوا (الأشراف) و (الوجهاء).

كما نستنتج من ذلك أن رفضهم لرسالات الأنبياء لم يكن من أجل عدم اقتناعهم بها، وإنما من أجل الحفاظ على مصالحهم الاجتماعية.

ثانياً: تخيّر الكلمة

من نقاط الالتقاء بين (النظام القرآني) و (النظام الكوني): وضع كل شيء في محله الطبيعي المناسب له، بحيث يسبب أي تلاعب - ولو كان بسيطاً - خللاً في النظام وفساداً.

ففي النظام الكوني نجد أن كل ذرة من ذرات الوجود، وجدت لحكمة، ووضعت في مكانها الخاص بها لحكمة، بحيث لو حدث أي تغيير في ذلك، لاختل جانب من جوانب الحياة.

وفي النظام القرآني نجد أن كل كلمة في القرآن، وضعت في محلها الطبيعي، بحيث لا يمكن أن تسد أية كلمة أخرى مكانها، ولا أن تعطي نفس الأبعاد والظلال التي كانت تعطيها تلك الكلمة.

وهذا ما يدفعنا إلى البحث عن سر استخدام القرآن الكريم لهذه الكلمة لا غيرها، وبهذا الشكل لا غيره.

وفيما يلي، بعض النماذج الإيضاحية.

(١)

يقول القرآن الكريم: (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) (١).

إن معنى الآية الكريمة واضح، وهو (على ما يعطيه السياق: شغلكم التكاثر في متاع الدنيا وزينتها، والتسابق في تكثير العدة والعدة عما يهمّكم وهو ذكر الله، حتى لقيتم الموت، فعمتكم الغفلة مدى حياتكم) (٢).

ولكن السؤال هو:

لماذا يستعمل القرآن الكريم كلمة (زرتم)؟ لماذا لم يقل: حتى سكنتم المقابر، أو ملأتم المقابر، أو حللتم المقابر؟!

والجواب: ربما ليلفت الأنظار إلى أن المقام في القبر مقام مؤقت، وأن الدخول إلى القبر دخول زيارة لا

والدليل عليه أن قوله (من قومه) يقتضي أن ذلك الملأ بعض قومه، وذلك البعض لابد أن يكونوا موصوفين بصفة استحقوا لأجلها هذا الوصف، وذلك بأن يكونوا هم الذين يملأون صدور المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتهم، وتمتلئ الأبصار من رؤيتهم، وتتوجه العيون في المحافل إليهم، وهذه الصفات لا تحصل إلا في الرؤساء، وذلك يدل على أن المراد من الملأ الرؤساء والأكابر) راجع: التفسير الكبير: ج ١٤ ص١٥٠.

١- سورة التكاثر: ١ - ٢.

٢- الميزان ج ٢٠ ص٣٥١.

دخول سكن. خلافاً للأفكار المادية الضيقة التي تعتبر الموت هو النهاية، والقبر هو آخر المطاف.

(٢)

يقول القرآن الكريم، وهو يتحدث عن قصة زكريا بعد أن بشرته الملائكة بيحيى: (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ)؟! (قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) (١).

وهنا، نجد القرآن يستخدم كلمة (يفعل): (كذلك الله يفعل ما يشاء).

ويقول القرآن الكريم، وهو يتحدث عن قصة مريم بعد أن بشرتها الملائكة بعيسى: (قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ)؟! (قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (٢).

وهنا، نجد القرآن يستخدم كلمة (يخلق): (كذلك الله يخلق ما يشاء).

فما هو الفرق بين الموضوعين؟!

والجواب: في قصة زكريا كانت عوامل الولادة الطبيعية (من وجود الزوج والزوجة وغيرهما) متوفرة، ولكن كانت هناك موانع في الطريق، والله سبحانه رفع هذه الموانع، ولذلك كان التفسير بـ (الفعل).

تماماً كما لو أن العلم توصل إلى علاج لرفع العقم، وإعادة الشيخ إلى صباه قوة وقدرة، فهذا لا يعتبر خلقاً للجنين، وإنما فعلاً) رفع العقبة عن الطريق.

أما في قصة مريم، فلم تكن عوامل الولادة الطبيعية متوفرة، وإنما كان تكويناً إعجازياً يرتبط بالغيب، ومن هنا كان التفسير عنه بـ (الخلق).

(٣)

يقول القرآن الكريم: (وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً)، (وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) (٣).

عند النظرة السطحية العابرة قد يبدو أن الشكل الطبيعي للآية الكريمة كان يجب أن يكون: (وارزقوهم منها)، وليس (وارزقوهم فيها)، أليس كذلك؟!

ولكننا نستطيع أن نفهم من استبدال كلمة (منها) بـ (فيها): ضرورة استثمار الولي لمال السفيه، وعدم تجميدها على حالتها الأولى (٤).

ذلك، لأنك قد تقول: (أكلت من الطعام)، وهذا يعني أن الطعام هو الذي أكل. وأن النقص ورد عليه، لا على غيره.

١- سورة آل عمران: ٤٠.

٢- سورة آل عمران: ٤٧.

٣- سورة النساء: ٥.

٤- ليس المقصود بـ (الضرورة) هنا الوجوب الشرعي، بل الأولوية أو الاستحباب.

أما عندما تقول: (أكلت في الصحن)، فهذا بالطبع، لا يدل على أنك أكلت الصحن، وإنما يعني أنك أكلت ما كان في الصحن.

وإذا كان القرآن الكريم يستخدم كلمة (منها) قائلاً: (وارزقوهم منها) لكان معناه: الأكل من نفس مال السفيه.

ولكن استخدام القرآن لكلمة (فيها) يدل على التوليد والتنمية المالية، فالمال هنا يظل محفوظاً، كما يظل الظرف محفوظاً في قولك (أكلت في الصحن). ولكن، ما تولد من هذا المال هو الذي ينفق منه على السفيه.

وهكذا، نستنتج من استبدال كلمة بسيطة مكان أخرى، هذه القاعدة الاقتصادية المهمة.

ثالثاً: موقع الكلمة

من نقاط الالتقاء بين (النظام الكوني) و (النظام القرآني): (الهدفية) التي تشمل جميع أنحاء كل واحد من النظامين.

ففي النظام الكوني نجد أن كل المخلوقات التي تسبح في هذا الكون الكبير - ابتداءً بالذرة وانتهاء إلى المجرة - كل هذه المخلوقات (مهدوفة)، ولا نجد كائنا واحداً وهو زائد على الحياة، أو طفيلي عليها.

وفي النظام القرآني نجد أن كل جملة، وكل كلمة، وكل حرف، جاء من أجل هدف معين، ولا نجد في القرآن الكريم حتى حرفاً واحداً يمكن الاستغناء عنه.

وحتى لو بدا للنظرة العابرة وجود شيء زائد - سواء في النظام الكوني أو في النظام القرآني - فإن البحث الدقيق يكشف عن ضرورة معينة تتطلب وجود ذلك الشيء ([1]).

من هنا، كان على من يحاول التدبر في القرآن الكريم أن يحاول اكتشاف (موقع الكلمة) أي الهدف التي جاءت من أجله هذه الكلمة، والمغزى الذي تشير إليه.

وسوف نستعرض فيما يلي بعض الآيات القرآنية. كنماذج لينطلق منها القارئ الكريم إلى سائر الآيات.

(١)

يقول القرآن الكريم، وهو يتحدث عن قصة زكريا بعد أن بشرته الملائكة بيحيى: (قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ)؟! (قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ) ([2]).

ما هو موقع كلمة (كذلك) في هذه الآية الكريمة، ولماذا لم تكن الآية: (قال: الله يفعل ما يشاء) أو (قال: إن الله يفعل ما يشاء)؟!

---

[1]- كان دارون يعتقد أن (الزائدة الدودية) هي جهاز زائد في الجسم الإنساني، وكان يستند إلى ذلك في دعم نظريته الشهيرة. إلا أن التطور العلمي أثبت مدى احتياج الجسد إلى هذا الجهاز، وكان ذلك بعد تجارب علمية طويلة. راجع (بين الإسلام ودارون) للإمام الشيرازي.

[2]- سورة آل عمران: ٤٠.

والجواب: إن وجود كلمة (كذلك) في هذه الآية يضيف إليها بعداً جديداً، هو الدلالة على الدأب والاستمرارية.

فعندما تعجب زكريا (عليه السلام) من أن يهب الله له غلاماً وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر، كان الرد أن هذه الولادة ليست بدعاً من الأمور، وإنما هي أمر مألوف ومكرر بالنسبة إلى مشيئة الله وفعله الذي يتم في أوقات كثيرة على هذا النحو. ولذلك فلا داعي للتعجب من أمر هذه الولادة.

وهكذا، دلت كلمة (كذلك) في هذه الآية الكريمة على سنة قديمة لله سبحانه في هذا الكون، لا تدع مجالاً للاستغراب من ظواهرها الجديدة.

(٢)

يقول القرآن الكريم: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) (١).

في هذه الآية نجد القرآن الكريم يضيف إلى اسم المسيح نسبه (عيسى ابن مريم).

بينما في الآية السابقة يذكر القرآن اسم موسى بشكل مجرد فيقول: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ) (٢). وقد تكرر ذلك في آيات القرآن كثيراً (٣).

فلماذا؟

والجواب: لقد تركز الضغط القرآني على كلمة (ابن مريم) تأكيداً على الجانب البشري في المسيح، ونفياً مشدداً لما ادعته النصارى من وجود جانب إلهي فيه.

وهكذا، يجمع القرآن الكريم بين استعراض الأفكار والمفاهيم الإلهية، وبين النفي الضمني للخرافات، والأباطيل.

(٣)

يقول القرآن الكريم: (ألم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ) (٤).

هذه الآية الكريمة نزلت عندما اندحر الروم في أرض الشامات (وهي أقرب أرض إلى الجزيرة العربية) وانتصر الفرس عليهم، وهزموهم هزيمة ساحقة.

ولكن، ما هو مغزى ورود كلمة (في أدنى الأرض) في هذه الآية؟! مع أن موقع المعركة كان معروفاً لدى الجميع؟!

وحتى لو افترضنا أن موقع المعركة كان مجهولاً، فهل القرآن كتاب جغرافي حتى يتناول مثل هذه القضية؟ أم أن هنالك أمراً آخر؟!

١- سورة الصف: ٦.

٢- سورة الصف: ٥.

٣- ورد اسم المسيح في القرآن الكريم مقروناً بكنيته (ابن مريم) حوالي (٢٠) مرة.

٤- سورة الروم: ١ - ٣.

والجواب:

قد يكون قوله سبحانه (في أدنى الأرض) من أجل توضيح حجم الهزيمة التي حلت بـ (الروم) ذلك لأن القضية لم تكن قضية جيشين يلتقيان في الصحراء ويمنى أحدهما بالفشل، فالقضية أكبر من ذلك، إنها قضية جيش غاز، يغزو عدوه في عقر داره، وينتصر عليه، ومن ثم يقيّده بالسلاسل، ويمتهن شرفه وكرامته (١).

إذن، فحجم الهزيمة كبير، والمصاب فادح، ولكن رغم ذلك تشاء إرادة الله أن تعكس الأمر، وتعيد للروم حريتهم واستقلالهم.

وهكذا، دل قوله تعالى (في أدنى الأرض) على تلك الهزيمة العظيمة، التي تدخل القدر الإلهي ليحولها إلى نصر عظيم!

رابعاً: الشكل الخارجي

إذا ألقيت نظرة عابرة على جسدك، تجد أن كل عضو، وكل جهاز في هذا الجسد له شكل معين. فاليد، والرجل، والأصابع، والكبد، والأمعاء، و، لها شكل خاص، يختلف عن شكل الأعضاء، والأجهزة الأخرى.

وهذه الشكلية المتنوعة لم تأت عبثاً، وإنما وفق حكمة إلهية معينة، ولتلبّي حاجات الإنسان ومتطلباته، على أفضل وجه. وكما جسد الإنسان، كذلك الكون كله.

هذه الحقيقة التي نلمسها في كتاب الله التكويني (الكون)، نستطيع أن نلمسها أيضاً في كتاب الله التشريعي (القرآن).

فالشكل الخارجي للآيات القرآنية، لم يأت عبثاً، وإنما وضع لحكمة معينة، وللدلالة على فكرة خاصة، من هنا كان علينا - حين نتدبر في القرآن الكريم - أن نكتشف الفلسفة الشكلية الخارجية للآيات القرآنية، والتدبر هذا ينبغي أن يشمل المجالات التالية:

أ - التقديم والتأخير.

١- يقول المؤلف الشهير (وحيد الدين خان): وأغار (كسرى ابرويز) على بلاد الروم، زحفت جحافله عابرة نهر الفرات إلى الشام. ولم يتمكن (فوكاس) ملك الروم من مقاومة جيوش الفرس التي استولت على مدينتي (أنطاكية والقدس) فاتسعت حدود الإمبراطورية الفارسية إلى وادي النيل، وتقلصت الإمبراطورية الرومانية في عاصمتها، وسدت جميع الطرق في حصار اقتصادي قاس، وعم قحط، وفشت الأمراض الوبائية، ولم يتبق من الإمبراطورية غير جذور شجرها العملاق. وكان الشعب في العاصمة خائفاً يترقب ضرب الفرس للعاصمة، ودخولهم فيها، وترتب على ذلك أن أغلقت جميع الأسواق، وكسدت التجارة وتحولت معاهد العلم والثقافة إلى مقابر موحشة مهجورة (وبدأ عباد النار يستبدون بالرعايا الروم للقضاء على المسيحية، فبدأوا يسخرون علانية من الشعائر الدينية المقدسة، ودمروا الكنائس، وأراقوا دماء ما يقرب من (١٠٠. ٠٠٠) مائة ألف إنسان من المسيحيين المسالمين وأقاموا بيوت عبادة النار في كل مكان، وأرغموا الناس على عبادة الشمس والنار. راجع الإسلام يتحدى ص١٨٣ - ١٨٤، ط٧.

ب - الأفراد والتثنية والجمع.

ج - المعلوم والمجهول.

د - وسائر الأشكال الأخرى.

وإليكم بعض النماذج.

(١)

يقول القرآن الكريم: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِنْ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) (١).

بينما يقول في آية أخرى: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ) (٢).

فلماذا في الآية الأولى قدم رزق المخاطبين على رزق أولادهم، وفي الآية الثانية قدم رزق الأولاد؟

هل جاءت المسألة عفوية، أو نوعاً من التفنن التعبيري؟ أم أن وراءها شيء آخر، وقد ترمز إلى حقيقة علمية أو واقعية؟

فباختلاف العبارتين يختلف معنى كل آية؟

المعنى قد يكون في الجملة واحداً، ولكن في التفصيل ونوع المخاطب به يختلف؟

لماذا؟ لأنك لو نظرت إلى عجز كل آية مع صدرها لوجدت أن العجز مناسب لذلك الصدر تماماً. لأنه في الآية الأولى يقول: (ولا تقتلوا أولادكم من إملاق).

فهذه العبارة (من إملاق) توحي بأن الفقر موجود بالفعل. وما دام الفقر موجوداً بالفعل فاهتمام الإنسان يكون برزق نفسه قبل أن يهتم برزق ولده، فهو يخاف أن يبقى جائعاً لو أراد أن يطعم أولاده. وهنا يطمئنه الله تعالى على نفسه أولاً، ورزق أولاده ثانياً فيقول: (نحن نرزقكم - يا أصحاب الإملاق - وإياهم).

بينما في الآية الثانية يقول الله: (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) أي خوفاً من فقر يقع مستقبلاً، فكأن الفقر غير موجود، ولكن الأب يخاف إن جاءه أولاد أن يأتي الفقر معهم فيقول له الله تعالى: لا، أنا سأتكفل لهم برزقهم (نحن نرزقهم وإياكم).

إذن، فالمعنى ليس واحداً في الآيتين، وإن كان يبدو في ظاهره واحداً. لأن في قضية قتل الأولاد خوفاً من الفقر يكون المخاطب في كل آية مختلفاً عن الآخر.

فمرة يكون فقيراً بالفعل، وهنا يشغل برزقه قبل أن يشغل باله برزق ولده. فقتل الأولاد يكون نتيجة لوجود الفقر، وهنا تحمل العبارة ضماناً لرزقه أولاً، ثم رزق ولده ثانياً.

ومرة يكون غنياً، ولكنه يخاف أن يأتي الفقر إذا جاء الولد، فيكون باله مشغولاً برزق ولده، فيقتله تحسباً من الفقر المتوقع بمجيء الولد، وهنا تعطيه الآية بشارة برزق الولد مع مجيئه (نحن نرزقهم وإياكم) (٣).

١- سورة الأنعام: ١٥١.

٢- سورة الإسراء: ٣١.

٣- القرآن كتاب حياة، ص١٤٩ - ١٥١.

(٢)

يقول القرآن الكريم: (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) (١).

هذه الآية الكريمة نزلت في شأن الإمام علي (عليه السلام) حينما تصدق بخاتمه وهو راكع، كما دلت عليه روايات الفريقين. وهذه الآية تثبت الولاية لكل من:

- الله سبحانه وتعالى.

- الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله).

- الإمام علي (عليه السلام).

ولكن، لماذا اعتبرت الآية بكلمة (وليكم) بصيغة الإفراد؟ ولماذا لم تأت الآية هكذا: (إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا)؟!

والجواب:

إن التعبير بهذه الطريقة يشير إلى مفهوم هام هو أن الولاية هي لله سبحانه فالله هو الولي الحقيقي الذي لا ولي سواه، أما ولاية النبي والإمام، فهي مستمدة من ولاية الله سبحانه.

وهكذا، تكون ولاية الله، ولاية بالأصالة، وولاية النبي والإمام ولاية بالتبع.

ومن ذلك نستنتج أن النبي والإمام ليسا أكثر من ممثلين لله سبحانه في الأرض، ولذلك فلا يحق لهما أن يقوما بسن الأحكام، وتشريع القوانين وفقاً لأهوائهما الشخصية وإنما يجب أن يكون ذلك بقرار يهبط من السماء (٢).

(٣)

يقول القرآن الكريم: (يَهْدِي بِهِ - القرآن - اللَّـهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (٣).

في هذه الآية نجد أن القرآن الكريم يأتي بصيغة الجمع في كلمتي (سبل السلام) و (يخرجهم من الظلمات) بينما يأتي بصيغة الإفراد في قوله: (ويهديهم إلى صراط مستقيم)، فلماذا؟

والجواب:

إن الصراط المستقيم هو صراط واحد، ذلك لأن الحق واحد، من هنا فإن الطريق إلى الحق هو واحد أيضاً، ولذلك يقول القرآن الكريم في آية أخرى: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ

١- سورة المائدة: ٥٥.

٢- في هذا المجال يقول القرآن الكريم: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) (سورة الحاقة: ٤٤ - ٤٧).

٣- سورة المائدة: ١٦.

سَبِيلِهِ) (١).

وعلى العكس من ذلك (الظلمات) والطرق المعوجة، فهي كثيرة ومتعددة.

أما بالنسبة إلى (سبل السلام)، فإن الحياة حقل ألغام، والمشاكل كثيرة: نفسية، وجسدية، واجتماعية، واقتصادية، و، والسلام هو التخلص من مجموعة هذه المشاكل، كما أن الصحة هي التخلص من مجموعة الأمراض، ولأن التخلص من كل واحد من هذه المشاكل يحتاج إلى طريقة وأسلوب لذلك جاء التعبير القرآني بـ (سبل السلام) وليس (سبيل السلام).

(٤)

يقول القرآن الكريم: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (٢).

وهنا نجد أن القرآن الكريم يبني فعل (يوق) للمجهول، فلماذا؟

والجواب:

إن (الشح) ملتصق بالنفس الإنسانية، فالإنسان بطبيعته يحب أن يستأثر بالمال ويكره أن يعطي للآخرين منه شيئاً، وهذا الالتصاق الطبيعي يمكن أن نستفيده من إضافة (الشح) لـ (النفس) في الآية الكريمة.

من هنا، فإن من العسير على الإنسان أن يقاوم شحّه بذاته، لأنه يصعب عليه أن يقاوم طبيعته، لذلك فهو يحتاج إلى إمداد غيبي، ووقاية خارجية، كما تعبر الآية بقولها: (ومن يوق شح نفسه).

وبالطبع، فإن هذه الوقاية الإلهية، لا تهبط من السماء في كيس على قلب الإنسان، وإنما يوفرها الإيمان الحقيقي بالله.

(٥)

يقول القرآن الكريم، بعد أن يتحدث عن الصبر على المصيبة: (إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) (٣). ولكن القرآن يضيف حرف (اللام) للتوكيد حينما يتكلم عن الصبر على أذى الآخرين فيقول: (وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) (٤).

والسؤال: لماذا أضيف حرف (اللام) في الآية الثانية؟

والجواب - على ما قيل -:

إن الصبر على أذى الغريم الذي يستطيع الإنسان أن يردّ عليه بأذى مثله يحتاج من الإنسان إلى عزم أكبر، فالصبر هنا ليس كالصبر على مصيبة لا حيلة للإنسان فيها.

١- سورة الأنعام: ١٥٣.

٢- سورة الحشر: ٩.

٣- سورة لقمان: ١٧.

٤- سورة الشورى: ٤٣.

ومن هنا لم تجئ لام التوكيد في الآية الأولى، وجاءت في الآية الثانية (١).

خامساً: الارتباط والتسلسل

من أهم الشروط التي يجب توفرها في الكلام ليكون بليغاً، وأنيقاً: (الارتباط) و (التسلسل). فالكاتب الذي أبدع أفكاره يموّج بعضها في بعض، ويحشر المواضيع المختلفة بعضها ببعض حشراً. والخطيب الذي يقفز من موضوع إلى موضوع، كما يقفز الطائر من غصن إلى غصن. والمتحدث الذي تتزاحم على دماغه الأفكار، فيتحدث حولها جميعاً في وقت واحد. كل هؤلاء، ليسوا من البلاغة في شيء، بل كثيراً ما يحس من يستمع إليهم بالملل، والضيق، والانفجار!

ولأن القرآن الكريم هو قمة البلاغة والفصاحة، لذلك كان لابد من وجود روابط معينة بين آياته، بل وخيط خفي يربط بين آيات السورة الواحدة، كما يربط حبات المسبحة بعضها ببعض، خيط خفي، والعلاقة بين الآيات قد تكون:

- علاقة المسبب بالسبب.
- أو علاقة الاستدراك.
- أو علاقة التعليل.
- أو علاقة التشابه.
- أو علاقة التكميل.
- أو علاقة التفريع.

إلى غير ذلك من أنواع العلاقة (٢).

والسؤال الآن هو:

لماذا محاولة اكتشاف الروابط بين الآيات القرآنية؟ هل هناك ضرورة تفرض ذلك؟ أم أنه يمكننا أن نفهم كل آية بشكل مستقل، ومنفصل عن الآيات الأخرى؟

والجواب:

أن لاكتشاف الروابط بين الآيات القرآنية فائدتين:

إحداهما: فهم المعنى الحقيقي للآية، إن فهم المعنى الحقيقي لكثير من الآيات يتوقف على اكتشاف (الارتباط بين الآيات)، ومن هنا نجد أن الذين حاولوا فهم القرآن بشكل تجزيئي أخطأوا في فهم الكثير من الآيات (٣).

وثانيتهما: اكتشاف مفاهيم هامة وكثيرة، من خلال ذلك.

١ـ هذا الاستنباط مبني على إعادة (ذلك) في الآية الأولى إلى الصبر على المصيبة - كما هو مقتضى أحد التفسيرين - وليس إلى كل ما سبق.

٢ـ سوف نضرب فيما يلي بعض الأمثلة على ذلك.

٣ـ راجع - للمزيد من التفاصيل - الفصل الثاني من هذا الكتاب: (الفهم الشمولي للقرآن).

أما مجالات اكتشاف العلاقة فهي:

أولاً: العلاقة بين أجزاء الآية الواحدة، وهذا ما نسميه بـ (فهم الارتباط).

ثانياً: العلاقة بين الآيات ـ وهذا ما نسميه بـ (فهم التسلسل).

وفيما يلي، بعض الصور الإيضاحية.

(١)

يقول القرآن الكريم: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ) (١).

هذه الآية الكريمة تبين أن الجنة هي من نصيب أفراد ملامحهم كالتالي:

١ ـ إنهم هاجروا.

٢ ـ ولكن هذه الهجرة لم تأت عبثاً، أو من الراحة، أو السياحة، بل لأنهم عملوا، وجاهدوا حتى اضطرتهم القوى المعادية للخروج (وأخرجوا من ديارهم).

٣ ـ بيد أنهم لم يهربوا بمجرد أن رأوا قليلاً من الأذى والاضطهاد، بل واصلوا الجهاد بقدر الإمكان (وأوذوا).

٤ ـ وهذه المصاعب كلها لم تكن من أجل طموحات شخصية، وإنما من أجل الله، وفي سبيله (في سبيلي).

٥ ـ وبعد أن سُدّت الأبواب كلها في وجوههم هاجروا إلى المنفى، ولكنهم لم يستسلموا في المنفى للهدوء والراحة، بل واصلوا مسيرة الجهاد والثورة (وقاتلوا).

٦ ـ ثم، لم يكن الهدف من القتال الحصول على مكاسب دنيوية أو شخصية، فهم لم يحاربوا من أجل النصر، بل حاربوا بروحية المصمم على الموت، حتى استشهدوا في هذا الطريق (وقتلوا).

والسؤال الآن: ما هي النتيجة؟

والجواب يفصله لنا القرآن حين يقول: (.. لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار).

وكل ذلك (ثواباً من عند الله)، أي جزاءً لم يكن يعطى لهم إلا بذلك العمل.

إلا أن عطاء الله ليس عطاءً عادياً، أو محدداً، لأنه عطاء من الله (والله عنده حسن الثواب).

وربما لاحظ القارئ الكريم أن العلاقة بين أجزاء هذه الآية الكريمة هي علاقة (استدراكية).

(٢)

يقول القرآن الكريم: (.. فَنَادَتْهُ ـ زكريا ـ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً

١ـ سورة آل عمران: ١٩٥.

بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ) ([١]).

ربما يبين الارتباط بين أجزاء هذه الآية على الشكل التالي:

لقد بشرت الملائكة نبي الله زكريا بابنه يحيى، وذكرت له ثلاث مواصفات:

١ ـ أن يكون المبادر إلى تصديق عيسى المسيح (عليه السلام).

٢ ـ ولكن ذلك لا يعني أنه سيكون فرداً عادياً مثل سائر المؤمنين بالمسيح، كلا! إن له دوره الهام، وشخصيته المتميزة (وسيداً).

٣ ـ الوجهاء والسادة عادة يستغلون مراكزهم لإشباع غرائزهم، وإرواء شهواتهم، ولكن يحيى (عليه السلام) ليس فقط يتجنب ذلك، وإنما أيضاً يحصر نفسه حتى عن اللهو البريء، والشهوات المحللة (وحصوراً) ([٢]).

٤ ـ وبعدئذ، يبلغ قمة الكمال الإنساني، فيصبح (نبياً من الصالحين).، وهل هنالك أعظم من هذه البشارة؟!

(٣)

يقول القرآن الكريم: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) ([٣]).

في هاتين الآيتين الكريمتين مبحثان:

١ ـ علاقة (ذرية بعضها من بعض) بما سبق.

٢ ـ علاقة (والله سميع عليم) بما سبق.

أما بالنسبة للمبحث الأول: فيبدو أن قوله تعالى: (ذرية بعضها من بعض) بمنزلة التعليل للاصطفاء، العمومي الذي شمل (آل إبراهيم) و (آل عمران)، فهي ذرية متماثلة، وبعضها يشبه البعض في صفات الفضيلة والكمال.

ومن هنا كان اختيار هاتين الأسرتين (اختياراً مجموعياً)، بينما كان اختيار (آدم) و (نوح) اختياراً فردياً حيث فقدت ذرياتهما تلك المواصفات.

أما بالنسبة إلى المبحث الثاني: فإن قوله تعالى: (والله سميع عليم) بمنزلة التحليل لأصل (الاصطفاء). فالاصطفاء الإلهي ليس اصطفاءً كيفياً، بل هو اصطفاء دقيق، يكفي في دقته: أن الله (السميع) (العليم) هو الذي يقوم به.

١ـ سورة آل عمران: ٣٩.

٢ـ قال في الصافي: (مصدقاً بكلمة من الله يعني عيسى، وسيدا: يسود قومه، ويفوقهم، وحصوراً: مبالغاً في حصر النفس عن الشهوات والملاهي، روي أنه مرّ في صباه بصبيان فدعوه إلى اللعب فقال: ما للعب خلقت، وعن الصادق (عليه السلام): هو الذي لا يأتي النساء). (الصافي ـ المجلد الأول ـ ص ٢٦٠) وربما يقال: أن تفسير الحصور بعدم الزواج هو من باب المصداق.

٣ـ سورة آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤.

ومن هنا نستنتج أن اختيار الله لرسله، وصفوته من خلقه، إنما يعود إلى مؤهلات وكفاءات توفرت فيهم، وليس اختيارا فوضوياً، أو عشوائياً (١).

(٤)

يقول القرآن الكريم: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى) (٢).

ما هي العلاقة بين قوله: (من لا يؤمن بها) وقوله: (واتبع هواه)؟

والجواب:

إنها علاقة سببية، بمعنى أن اتباع الهوى هو السبب وراء الكفر بيوم القيامة.

إن أغلب الذين لا يؤمنون بالآخرة لا ينطلقون في موقفهم هذا من (شبهات عقلية)، بل من (شهوات نفسية)، إنهم يجدون أن الإيمان بالآخرة يعني الحجر على أهوائهم الطائشة، ولذلك يريحون أنفسهم برفض الآخرة من الأساس.

وربما كان في إتيان لفظة (اتبع) بصيغة الماضي، مع أن المعطوف عليه وهو (من لا يؤمن بها) قد أتى بصيغة المضارع، ربما كان في ذلك إشارة إلى تقدم مرحلة (اتباع الهوى) على (إنكار الآخرة).

(٥)

يقول القرآن الكريم: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ) (٣).

هنالك ثلاثة حواجز تقف أمام إنزال العقوبة بالمتمردين، وهي:

١ - الضعف، فعندما يكون الفرد ضعيفاً، وعندما تكون الدولة ضعيفة. فإنهما لن يستطيعا - بالطبع - عقاب المتمردين.

٢ - الشفقة المفرطة، فقد يكون الفرد قوياً، إلا أن شدة شفقته تقف حاجزاً أمام عقاب من يستحق العقاب، مثلاً: الآباء الذين تغمرهم العاطفة أكثر من اللازم، فيدعون أبناءهم يفعلون ما يشاءون، من دون أن يستخدموا لغة (العصا) معهم.

٣ - الجهل، وهو قد يكون جهلاً بوقوع الجريمة، أو جهلاً بالذين ارتكبوا الجريمة، وطبعاً في هذه الحالات لن يستطع الفرد أو الدولة أن يقوما بأي إجراء مضاد.

١- قال في الصافي: (والله سميع بأقوال الناس (عليم) بأعمالهم، فيصطفي من كان مستقيم القول والعمل). الصافي: المجلد الأول، ص٢٥٧.

٢- سورة طه: ١٥ - ١٦.

٣- سورة آل عمران: ٤ - ٥.

أما الله سبحانه وتعالى فلا تقف أمامه هذه الحواجز، كما تشرحه لنا هاتان الآيتان، فهو:

١ ـ العزيز، أي القوي الذي لا يعجزه شيء.

٢ ـ ذو انتقام، فهو ينتقم من خصومه وأعدائه، وليس رحمة مطلقة، كما يتصوره البعض، إنه (أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة) ولكنه أيضاً: (أشد المعاقبين في موضع النكال والنقمة)، كما جاء في دعاء الافتتاح.

٣ ـ وهو مطلع على كل شيء، ولا يمكن أن يفلت شيء من علمه (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء).

إذن، فليحذر الكفار، وليستعدوا لذلك اليوم الرهيب، حيث ينتظر الذين كفروا بآيات الله عذاب شديد.

(٦)

يقول القرآن الكريم: (قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ) (١).

في النظرة العابرة قد يبدو وجود فجوة بين الآيتين الأوليتين اللتين تتحدثان عن سلطة الله، وبين الآية الأخيرة التي تنهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياءً وأنصاراً. ولكن الواقع أن الارتباط بين هذه الآيات قوي جداً، ولتوضيح هذا الارتباط نذكر ما يلي:

هنالك بعض المؤمنين ـ من ضعاف الإيمان ـ يمدّون الجسور بينهم وبين الجهات المضادة، ويقيمون معها علاقات متينة، وذلك يعود إلى أن هؤلاء يتصورون أن التحالف مع هذه الجهات سوف يمنحهم بعض المكاسب الدنيوية التي يلهثون وراءها.

ولمواجهة هذا الطراز، يؤكد القرآن الكريم أن الله سبحانه هو المتصرف في الكون وهو المتصرف في الحياة، إن كل شيء يرتبط بإرادة الله، فالملك، والعزة، والرزق، والامتيازات الدنيوية الأخرى، كلها بيد الله تعالى، وليست بيد أي واحد من المخلوقين.

إذن، فما بال هؤلاء، يبحثون عن هذه الأمور عند غير الله؟!

أم انهم لا يكادون يفقهون حديثاً؟

سادساً: التصنيف

والتصنيف يعني: تقسيم ما ورد في الآيات القرآنية، وفقاً للأبعاد الزمنية، أو المواقف الاجتماعية، أو

١ـ سورة آل عمران: ٢٦ ـ ٢٨.

الصفات النفسية، أو غير ذلك.

والأمثلة التالية هي الكفيلة بتوضيح ذلك:

(١)

يقول القرآن الكريم: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) (١).

هناك ثلاث طوائف يقدم إليها الإنسان الحمد والشكر:

١ - الذين قدموا للإنسان خدمة، في الزمن الغابر، كالأب والأم اللذين تحمّلا العناء لتربية الابن عندما كان صغيراً.

ب - الذين يقدمون للإنسان الخدمات في الوقت الراهن.

ج - الذين يحتاج إليهم الإنسان في المستقبل.

والله سبحانه، هو المستحق للحمد، لأنه:

أ - خلقنا من العدم، وقام بتربيتنا وتنميتنا، في الماضي (ربّ العالمين).

ب - يغمرنا بوابل من رحمته وإحسانه، في الحاضر (الرحمن الرحيم).

ج - ومصيرنا بيده، في المستقبل، عندما ينفخ في الصور، ويقوم الناس لرب العالمين (مالك يوم الدين).

إذن، فهل هناك أحق بالحمد والشكر من الله سبحانه؟!

ولكن الإنسان جهول كفار!

(٢)

يقول القرآن الكريم: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَ نَعْبُدَ إِلاَ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (٢).

في البداية، يقرر القرآن مبدأ (التوحيد)، القاعدة الأساسية التي يقوم على أساسها الإسلام كله، ثم يبين القرآن، أن هنالك عدوين للتوحيد:

أ - الأهواء والشهوات النفسية والكائنات التي تُتخذ آلهة مع الله، وفي ذلك يقول: (ولا تشرك به شيئاً).

ب - الأصنام الاجتماعية، والطواغيت، التي تتخذ شركاء مع الله، وفي ذلك يقول: (ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله).

وهكذا، يجب أن لا يشرك الإنسان مع الله (شيئاً) ولا (شخصاً) حتى يكون موحداً حقيقياً.

١- سورة الحمد: ١ - ٣.

٢- سورة آل عمران: ٦٤.

(٣)

يقول القرآن الكريم: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ) (١).

في هذه الآية يستعرض القرآن الكريم دليلين يعتبران من أهم الأدلة على وجود الله:

أ - دليل (الوجود).

إن وجود ساعة يدوية صغيرة، يدل على وجود خبراء، ومعامل، وتخطيط، فكيف بالأرض والسماوات العظيمة؟

ب - دليل (الحركة).

إن تحرك عقارب تلك الساعة اليدوية، ودورانها بشكل منتظم يكشف عن وجود (محرّك) وذلك لأنه من غير المعقول أن تحدث الحركة من تلقاء نفسها.

وإذا كان ذلك أمراً طبيعياً في تحرك ساعة يدوية، فكيف بـ (اختلاف الليل والنهار).

وهكذا ينهض كل من (الوجود) و (الحركة) دليلاً على وجود الله تعالى.

هذه كانت بعض عناصر: (منهج التدبر القرآني)، وظلت هناك عناصر أخرى، مثل: (الحكمة) و (التصوير) و (المفارقات) وغير ذلك، تركناها في هذا الكتاب، وسنتحدث عنها في مجال آخر بإذن الله.

شروط التدبّر في القرآن

لكي يكون التدبر في القرآن مثمراً ومفيداً. ولكي يكون متكاملاً، وسليماً.

لابد أن تتوفر مجموعة من الشروط في من يتدبر في آيات القرآن الكريم، والشروط هي كالتالي:

١ - الملاحظة العلمية الدقيقة.

إن قسطاً كبيراً من التقدم العلمي الحديث يعود إلى (روح البحث والملاحظة) التي توفت لدى علماء هذا العصر.

إن الرجل القديم كان يمر على ظواهر طبيعية كثيرة، ولكنه لم يكن يفكر فيها، ليكتشف القوانين الكامنة وراءها، بل كان يمر عليها مرور الكرام.

بينما امتلك الإنسان - في بدايات العصور الحديثة - روح البحث العلمي والملاحظة الدقيقة، فبدأ يحقق في كل شيء في هذا الكون، وتوصل من خلال ذلك إلى اكتشافات هائلة (٢).

١ـ سورة آل عمران: ١٩٠.

٢ـ لمدة طويلة من الزمن كان آباؤنا يرون الثمار تتساقط على الأرض، وكذلك جميع الأجسام التي ترمى في الفضاء، ولكنهم كانوا يعتبرون ذلك أمراً بديهياً لا يحتاج إلى سؤال أو بحث. ولكن إسحاق نيوتن شاهد تفاحة تسقط من شجرة فاستلفتته هذه الظاهرة وأخذ يفكر مع نفسه: لماذا هبطت هذه التفاحة إلى الأرض؟ ولم تقف في مكانها، أو تصعد إلى السماء؟! وكانت هذه الملاحظة بداية بحث دقيق، انتهى إلى اكتشاف نيوتن لقانون (الجاذبية).

و (التدبر في القرآن) لابد أن تتوفر فيه (الملاحظة الدقيقة) حتى يكون مفيداً، ومثمراً، وذلك بأن يطرح الإنسان أسئلة مختلفة على نفسه حول مختلف الظواهر القرآنية:

لماذا جاءت هذه الكلمة بهذا الشكل، ولم تأت بشكل آخر؟

لماذا جاءت الكلمة هنا بشكل، وجاءت في مكان ثان بشكل آخر؟ (١).

لماذا تقدمت هذه الكلمة على تلك (٢)؟

ما هي الحكمة في إنزال العقاب أو الثواب، بأسلوب معين (٣)؟ وهكذا، وهلم جراً.

إن الانتباه إلى أمثال هذه الملاحظات يضع الإنسان على بداية الطريق لفهم قرآني متين.

ولكن ذلك لا يكفي، إذ يجب أن يعقب (الملاحظة العلمية) شرط آخر هو:

٢ - التروي والأناة.

فبعد أن تقودنا الملاحظة العلمية إلى طرح مجموعة من التساؤلات حول الآيات القرآنية، علينا أن نبدأ تفكيراً معمقاً للوصول إلى الإجابة.

إن الفكر الإنساني يشبه إلى حد ما أشعة الشمس، التي توجد في كل مكان، لكنها لا تستطيع أن تحرق ورقة واحدة. ولكن عندما تركز هذه الأشعة من خلال زجاجة مقعّرة فإنها تحرق، ليس الورق فحسب، بل وسائر الأشياء أيضاً.

وهكذا الفكر عندما يتركز على نقطة معينة، وليس من المهم أن تكون (كمية) أفكار الإنسان كثيرة، المهم أن تكون (كيفيتها) ممتازة وجيدة، وبالطبع فإن الطريق إلى تفكير جيد يمر عبر التروي والأناة.

وهنا نذكر ملاحظة هامة هي:

في بعض الأحيان لا يصل الإنسان إلى أجوبة للتساؤلات المطروحة حول الظواهر القرآنية، وفي هذه الحالة لا يجوز أن يصاب باليأس، بل عليه أن يواصل التفكير وسوف يعثر على الإجابة، اليوم أو غداً.

٣ - عدم التسرع في تقبل الأفكار.

إن (للفكرة) في بدايتها بريقاً خاصاً لا يقاوم، ومن هنا نجد الكثيرين يبادرون إلى تقبّل الأفكار بمجرد أن تلوح لهم بنفسها من بعيد، من دون أن يحققوا في مدى صحتها، وسقمها.

ولذلك فإنهم كثيراً ما يجدون أنفسهم وقد سقطت في الضلال والانحراف، ولكن بعد خراب البصرة. تماماً كما تسقط سيارة مسرعة في الهوة العميقة، ثم لا تستطيع منها خلاصاً.

وهنا نخص بالذكر ضرورة الحذر الأكثر من التسرع في تقبّل نوعين من الأفكار، خلال التدبر في القرآن الكريم:

١- مثلاً يستخدم القرآن كلمة (نزل) بالنسبة إلى القرآن فيقول: (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ) ويستخدم كملة (أنزل) بالنسبة إلى التوراة والإنجيل فيقول: (وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ) (سورة آل عمران: ٣)

٢- مضى في الفصل السابق بعض الأمثلة على ذلك.

٣- مثلاً: لماذا عاقب الله بني إسرائيل بالتيه في الأرض أربعين سنة وليس أكثر أو أقل؟ (سورة المائدة: ٢٦). ولماذا تكوى جباه وجنوب وظهور الذين يكنزون الذهب والفضة دون غيرها (سورة التوبة: ٣٥). ولماذا جاء بأس الله بياتاً أو هم قائلون (سورة الأعراف: ٤) وهكذا.

أ - الأفكار الجاهزة، ونعني بها تلك الأفكار المصبوبة في قوالب لطيفة، وظريفة.

إن على الإنسان أن يهتم بمضمون الفكرة ومحتواها، وليس بشكلها الخارجي، وفي سبيل ذلك لابد من التفكير الدقيق، والمعمّق.

ب - الأفكار الشخصية.

إن الإنسان (يحابي) ذاته، ويتحيّز لها، ولذلك فإنه يتسرع في قبول ما أبدعه عقله وتفكيره، دون أن يفكر جدياً في الأمر، ودون أن يرى جوانب القضية المختلفة.

من هنا، كان على الإنسان أن (يتهم) ما خطر على قلبه، بمعنى أن لا يتقبله بسرعة، بل يفكر فيه بدقة، فإن كان حقاً قبله، وإن كان باطلاً طرحه جانباً.

٤ - التتلمذ على يد القرآن.

فعلى الإنسان أن يكون التلميذ المتواضع أمام القرآن، عليه أن يسيّر نفسه وفق ما يريده القرآن، لا أن يسير القرآن وفق ما يريده، عليه أن يحكّم القرآن في أفكاره ورؤاه، وليس العكس. ومن دون ذلك، سيكون مصير الإنسان الضلال والانحراف (١).

٥ - الرجوع إلى المصادر، وهي: اللغة، والتفاسير، وروايات الأئمة الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام)، وتتأكد ضرورة ذلك فيما لو كانت المفاهيم التي يريد الإنسان استنباطها جذرية وتغييرية وجديدة، وفي غير هذه الحالة يمكن أن يستنبط الإنسان مفاهيم خاطئة، فيَضِلّ، ويُضلّ.

٦ - الثقة بالنفس، فعلى الإنسان - خلال تدبره في القرآن الكريم - أن لا يستصغر ذاته، ولا يحتقر أفكاره، وأن لا يسمح لنفسه بالذوبان في أفكار الآخرين وآرائهم.

إن آراء المفسرين السابقين قد تكون ضوءاً على الطريق، ولكنها لا يجوز أن تقفل أبواب التفكير أمام الفرد، وتصيب دماغه بالتحجر والجمود، وبعد الثقة بالنفس يأتي دور:

٧ - الإبداع.

فعلى الإنسان أن يربي عقليته على (الإبداع)، ويحاول أن يستنبط أفكاراً جديدة ورؤى مبتكرة، وذلك ضمن حدود الدين، وليس خارجاً عنها، لأن ذلك يعني (البدعة) المنهي عنها في الشرع، ولنعلم أن التطور الثقافي، والحضاري، والصناعي، إنما توفر بفضل أصحاب العقول المبدعة، فهلا نكن منهم؟!

الفصل الثاني

الفهم الحيوي للقرآن

١- سبق الحديث حول هذا الموضوع بشكل أكثر تفصيلاً في فصل (وماذا نصنع في هذه الشبهات).

الفهم التجزيئي للقرآن

النظرة النقيضة إلى الشيء - أي شيء كان - لا تعكس حقيقة ذلك الشيء ككل، ذلك لأن النصف سيظل نصفاً، ومن هنا، فهو ليس مخولاً أن يحكم على الكل.

بل إن النظرة النصفية قد تجني أحياناً على الكل، وتحول الأمر إلى ضده، فاللوحة الزيتية الجميلة التي رسمتها يد فنان ماهر، قد تتحول إلى منظر بشع عندما تغطي نصفها بالمنديل.

والطبيب الذي لم يستوعب إلا نصف الطب، قد يقع في أخطاء قاتلة، تلقي بالذين يراجعونه، بين أنياب الموت. ولذلك قيل: (أحياناً يكون الجهل المطلق خيراً من الفهم الناقص)!

وعندما نجزئ كلمة (لا إله إلا الله) وتقتصر على المقطع الأول، فإن شعار الإيمان هذا يتحول إلى كلمة كفر!

وهكذا، يكون نصف الشيء، ضد ذات الشيء، في كثير من الأحيان.

ولقد أصاب القرآن الكريم ما أصاب غيره، من (الفهم النصفي) و (النظرات التجزيئية)، فتحول إلى أشلاء مبعثرة، ومقاطع متفرقة، لا يرتبط أحدها بالآخر، بل ويتناقض بعضها مع البعض الآخر أحياناً!

وماذا يحدث عندما نأخذ الجسم الحي، ونحوله تحت ضربات المبضع، إلى أجزاء متفرقة؟! ألا يعني ذلك تعطيله عن العمل؟!

هذا هو بالضبط ما حدث للقرآن الكريم حينما فرقناه شيعاً، وفصلنا بين آياته!

ورغم أن الأئمة الطاهرين (عليهم أفضل الصلاة والسلام) أكدوا على ضرورة الفهم الشمولي للقرآن، فقالوا:

(إن القرآن يفسر بعضه بعضاً).

وقالوا كذلك: (يشهد بعضه على بعض وينطق بعضه ببعض).

رغم ذلك، فإن أجيالنا أخذت تفهم الآيات بشكل مجزّأ، بعيداً عن الآيات الأخرى، بل - في بعض الأحيان - أخذوا يجزئون الآية الواحدة، لكي يستنبطوا منها مفاهيم ما أنزل الله بها من سلطان.

وقد تجلى (الفهم التجزيئي) للقرآن، في المظاهر التالية:

(١)

فصل الجملة القرآنية عن السياق

للسياق أثر كبير في الدلالة على مقصود المتكلم، ونقصد بـ (السياق) الجو العام الذي يحيط بالكلمة، وما يكتنفها من قرائن وعلامات.

إن الكلمة الواحدة والجملة الواحدة قد تحمل مدلولين متناقضين تماماً، دون أن تختلف الكلمة في بنائها الداخلي، وإنما الذي تغير هو (السياق) والقرائن المحيطة.

فقد يقول الأب لابنه: (افعل الأمر الفلاني) وهو يقصد المعنى الظاهري لهذه الكلمة، وقد يستخدم نفس الكلمة ويقصد بها التهديد، الذي يستطيع اكتشافه من خلال القرائن، وهنا ينقلب معنى (افعل) إلى معنى مناقض تماماً هو (لا تفعل)!

وهذا هو بالضبط ما ينطبق على القرآن الكريم، فقد يستخدم القرآن صيغة الأمر ويقصد بها مدلولها

الظاهري، عندما يقول: (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ) (١).

وقد يقصد بها الإباحة عندما يقول: (وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا) (٢) عقيب الحظر في قوله: (لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ) (٣).

وقد يقصد التهديد عندما يقول: (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ) (٤).

وقد يقصد التعجيز والتحدي عندما يقول: (فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ) (٥) أو عندما يقول على لسان نبي الله هود (عليه السلام) مخاطباً قومه الكافرين: (.. فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ) (٦).

وقد يقصد الاستهزاء عندما يقول - على لسان الله في خطابة لبعض أهل جهنم -: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) (٧)، وهكذا وهلم جراً (٨).

ولقد استخدمت هذه الآيات جميعاً صيغة الأمر: (أقم، فاصطادوا، فاعبدوا، فأتوا، فكيدوني، ذق)، فما الذي جعلها تعطي مدلولات مختلفة، بل ومتناقضة أيضاً؟

إنه السياق القرآني، والقرائن الخارجية، لا غير.

ونحن نجد أن المسلمين الأولين كانوا يستطيعون أن يحدّدوا مفهوم كلمة معينة، أو آية معينة في القرآن من خلال سياقها العام.

ففي الحديث: أن أحد الصحابة قرأ على المنبر قوله تعالى: (فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً) (٩).

ثم أردف: كل هذا عرفناه فما الأب؟ ثم حرك عصا كانت في يده وقال: هذا لعمر الله هو التكلف، فما عليك أن لا تدري ما الأب؟

وأضاف موجهاً خطابه إلى الجماهير: اتبعوا ما بُيّن لكم هداه من الكتاب فاعملوا به، وما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه! (١٠).

وفي بعض المصادر: أن علياً (عليه السلام) جاء بعد ذلك وقال: إن معنى اللفظ موجود في الآية ذاتها، لأن الله يقول: (وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ) فالفاكهة لكم، والأب لأنعامكم (١١).

١- سورة الإسراء: ٧٨.

٢- سورة المائدة: ٢.

٣- سورة المائدة: ٩٥. راجع الكتب الأصولية في مبحث (الأمر عقيب الحظر).

٤- سورة الزمر: ١٥.

٥- سورة البقرة: ٢٣.

٦- سورة هود: ٥٥.

٧- سورة الدخان: ٤٩.

٨- راجع - للمزيد من التفاصيل - كتاب (معالم الدين في الأصول) ص٣٩، فقد ذكر لصيغة الأمر (١٥) معنى!

٩- سورة عبس: ٢٧ - ٣١.

١٠- الغدير: ج ٦ - ص ٩٩.

١١- بحوث في القرآن الكريم: ص٤٠، علماً بأن الحادثة نقلت في هذا الكتاب باختلاف يسير.

وهكذا كشف الإمام علي (عليه السلام) للناس معنى الأب، من خلال السياق القرآني.

وفي حديث آخر: أن عمر مرّ يوماً بشاب في فتيان الأنصار وهو ظمآن، فاستقاه. فخلط له الفتى الماء بعسل وقدمه إليه، فلم يشربه وقال: إن الله تعالى يقول: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا).

فقال له الفتى: يا أمير المؤمنين! إنها ليست لك ولا لأحد من أهل القبلة. أترى ما قبلها (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا) (١) فقال عمر: كل الناس أفقه من عمر! (٢).

لقد تصور عمر أن هذه الآية تنهى المؤمنين عن تناول الطيبات، وتدعوهم لتأجيلها إلى الآخرة، وتؤكد أن الذين يعجّلون بالطيبات في هذه الآيات ليس لهم منها نصيب في الآخرة.

وكان هذا التصور نابعاً من تجزيئه للآية الكريمة.

ولكن الفتى الأنصاري استطاع أن يفهم أن المراد (أنه يقال للكافرين حين عرضهم على النار لقد أنفذتم الطيبات التي [كنتم] تلتذون بها في حياتكم الدنيا - والمراد بالطيبات: المعاصي والذنوب ولذلك عبر القرآن بـ (طيباتكم) - فلم يبق لكم شيء تلتذون به في الآخرة) (٣).

ولم يكن الأنصاري ليستطيع أن يدرك هذا المعنى، إلا من خلال ملاحظته لسياق هذه الآية. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، استطاع بعض المسلمين أن يكتشفوا ترابط بعض الآيات، من خلال ملاحظة السياق القرآني.

لقد سمع أحد العرب رجلاً يتلو آية هكذا:

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله غفور رحيم).

فقال له الإعرابي: أخطأت.

قال: وكيف؟

قال: إن المغفرة والرحمة لا تناسبان قطع يد السارق.

فتذكّر الرجل الآية وقال: (والله عزيز حكيم) (٤).

فقال الإعرابي: نعم، بعزته أخذها، وبحكمته قطعها (٥).

من كل ذلك: نستطيع أن نكتشف أن (السياق القرآني) هو عامل حاسم في فهم القرآن الكريم، وأن المسلمين الأولين استطاعوا أن يستفيدوا من هذا العامل في فهم، أو تفهيم الآية القرآنية.

وجاءت أجيال أخذت تفصل بين الجملة القرآنية وبين السياق، لتستنتج من ذلك - عن علم أو جهل - مفاهيم تتنافى مع أبسط مبادئ الدين!

هذه الأجيال أخذت تفسر القرآن على طريقة من يستدل على عدم وجود الصلاة بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

١- سورة الأحقاف: ٢٠.

٢- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٦١، طبعة (دار إحياء التراث العربي).

٣- الميزان في تفسير القرآن: ج ١٨ - ص٢٠٦.

٤- سورة المائدة: ٣٨.

٥- القرآن كتاب حياة: ص٦٧ - ٦٨.

آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ) (١)!

وقد ترتب على ذلك مضاعفات خطيرة في مجالات مختلفة، نذكر منها ما يلي:

١ - مجال العمل والتحرك.

٢ - مجال العقيدة والإيمان.

٣ - مجال فهم (الكلمة) القرآنية.

ولكن كيف؟! دعنا نعرف.

أولاً: في المجال العَمَلي

يقول القرآن الكريم: (وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلى التَّهْلُكَةِ) (٢).

هذه المقطوعة من الآية أصبحت شعاراً لكل المتقاعسين الذين يريدون التهرب من مسؤوليات العمل والتضحية.

فعندما يقال لهم: (ابذلوا المال في سبيل الله) يجيبون فوراً: إن ذلك يعني نفاد أموالنا والله العالم يقول: (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة)!

وعندما يقال لهم: تعالوا، نعمل، ونجاهد في سبيل الله، ونقاوم المفسدين والظالمين، يردون: لا شأن لنا بذلك، إذ أنه يعني: ضياع وقتنا، وخراب بيتنا، وإلقاءنا في أعماق السجون، وهذا هو بالضبط (التهلكة) التي نهانا الله أن نلقي أنفسنا، بأيدينا، فيها!

إذن، ما العمل؟!

عليك أن تهتم بأمر نفسك، أما الآخرون: فما لك ولهم؟! دعهم يذهبوا إلى الجحيم؟ ألم يقل شاعرهم في ذلك:

وما أبالي إذا نفسي تطاوعني***على النجاة بمن قد ضل أو هلكا!

وماذا بعد ذلك؟ لا شيء سوى أن تنزل رأسك، وتغمض عينيك، وتذهب بهدوء، وتعود بهدوء (لكي لا تنطحك الهرّة)! وإلا، فإنك تكون قد ألقيت نفسك في التهلكة، وكان جزاؤك جهنم خالداً فيها، وبئس المصير! (خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (٣)!

هذا هو منطق (التجزيئيين)، الذين يفصلون بين الجملة القرآنية وبين سياقها، عن علم أو جهل، لكي يستنبطوا منها هذه (المفاهيم المريحة)!

ولكن، دعنا نلقي نظرة على سياق هذه الآية لكي نفهم ما هو المقصود؟!

يقول القرآن الكريم:

(وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ).

١- سورة النساء: ٤٣.

٢- سورة البقرة: ١٩٥.

٣- سورة الحج: ١١.

(الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (١).

فقد جاءت هذه الآية في سياق آيات تحث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله، ذلك لأن الجهاد كما يحتاج للرجال يحتاج للمال، ورغم أن كل مسلم مجاهد كان يجهّز نفسه بعدّة القتال، ومركب القتال، وزاد القتال، إلا أن كثيراً من فقراء المسلمين الراغبين في الجهاد لم يكونوا يجدون ما يزوّدون به أنفسهم، ولا ما يتجهزون به من عدّة الحرب، ومركب الحرب، وكانوا يجيئون إلى النبي (صلى الله عليه وآله) يطلبون منه أن يحملهم إلى ميدان المعركة البعيد، الذي لا يُبلغ على الأقدام، فإذا لم يجد ما يحملهم عليه (تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) كما حكى عنهم القرآن الكريم في سورة التوبة: ٩٢.

ومن أجل هذا كثرت التوجيهات القرآنية إلى الإنفاق في سبيل الله، الإنفاق لتجهيز الغزاة. وصاحبت الدعوة إلى الجهاد دعوة إلى الإنفاق في معظم المواقع.

وعقيب هذه الدعوة يؤكد القرآن على أن عدم الإنفاق في سبيل الله، يعني (إلقاء النفس في التهلكة) ذلك أن البخل يسبب تضعضع الجبهة الداخلية للمؤمنين، وبالتالي انتصار الأعداء عليهم وإبادتهم مادياً ومعنوياً.

ثم يطالب القرآن الأمة المؤمنة بالمزيد من البذل والعطاء حين يقول: (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (٢).

إذن، فالسياق هنا يؤكد أن المراد من التهلكة هي (التهلكة التي تنبع من عدم الإنفاق) (٣).

ثانياً: في المجال العقائدي

يقول الله تعالى: (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ) (٤).

من خلال هذه المقطوعة من الآية، وآيات أخرى غيرها، يحاول (التجزيئيون) أن يفهموا أن لله تعالى وجهاً، وعيناً، ويداً، وساقاً، إلى غير ذلك من الأعضاء والجوارح (٥).

١ـ سورة البقرة: ١٩٣ ـ ١٩٥.

٢ـ فسروا قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) بأن العدل هو إعطاء كل ذي حق حقه. والإحسان هو الزيادة على ذلك.

٣ـ هنالك مؤشرات كثيرة تدل على أن المراد من (التهلكة) هنا عدم الجهاد، لكننا لم نسجلها لأنها لا ترتبط جذرياً بموضوع هذا الكتاب.

٤ـ سورة المائدة: ٦٤.

٥ـ ويقول شاعرهم في ذلك:

لله وجـــه لا يحـــد بصـــورة***ولـــربنا عيـــنان نـــاظرتان!

وله يدان، كـــما يقـــول إلهنا***ويمينه جلـــت عـــن الإيمان

ولكن، هل هو صحيح ما يفهمون؟!

قبل أن نجيب على هذا السؤال لابد أن نوضح حقيقة هامة، هي أن لليد استعمالات مختلفة، بعضها حقيقي، وبعضها غير حقيقي، والسياق هو الذي يستطيع أن يكشف المعنى المقصود؟!

مثلاً: إذا سمعت شخصاً يسأل زميله قائلاً: ما فعلت الشرطة بفلان؟ فأجاب: غلّوا يديه وراء ظهره، وأدخلوه السجن، فما الذي تفهم من كلمة (اليد) هنا؟ لا شك أنك تفهم المعنى الحقيقي لليد، أي تلك القطعة المكونة من لحم وعظم، والمتصلة بالذراع.

أما لو تساءل أحدهما عن الآخر، عن جود فرد معين، فأجابه: بأن يده مغلقة، أو مغلولة إلى عنقه، أو بأن يده يابسة مثلاً، فهل تفهم من ذلك على أن هنالك مرضاً في يده لا يدعه أن يفتحها، أو أن هنالك حبلاً يربط يديه إلى عنقه، أو أن يده غير رطبة وغير مبللة؟

أو عندما يقول القرآن: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ) (١) فهل تجمد على ظاهر اللفظ، بعيداً عن الذوق العربي الرقيق، وتجعل المعنى: ولا تشدّ يديك إلى رقبتك كالكسير، ولا تمدهما إلى طرفيك أفقياً ـ كلاعب رياضة؟! أم أنك تفهم أن (غلّ اليد إلى العنق) و (بسط اليد) تعبيران غير حقيقيين يقصد منهما البخل والإسراف (٢) وإذا اتضحت هذه الحقيقة نقول: إن سياق هذه الآية الكريمة يكشف لنا أن (اليد) هنا لم تستعمل بمعناها الحقيقي، بل هي مجرد تعبير غير حقيقي، يقصد به التعبير عن مدى جود الله وكرمه، في قبال

كلتا يديه يمـــين حين وصفهما***وهما علــــى الثقلـــين منفقتان

كرسيه وسع الســـماوات العلى***والأرض وهـــو يعمه القدمان

والله يضحك لا كضـــحك عبيده***والكيف ممتـــنع على الرحمان

والله ينزل كـــل آخـــر ليـــلة***لسمائه الدنـــيا، بـــلا كتـــمان

فيقول هل من ســـائل فأجـــيبه***فأنا القريب أجيـــب من ناداني

(راجع: التمهيد: ج٣ ص٩٠).

بل لقد تطرف بعضهم حتى حكى الكعبي عنه: أنه كان يجوز الرؤية في دار الدنيا، وأن يزوروا الله ويزورهم. وحكي عن داود الجواربي أنه قال: (اعفوني عن الفرج واللحية واسألوني عما وراء ذلك)! وأنه قال: (هو ـ أي الله ـ أجوف من أعلاه إلى صدره، مصمت ـ أي غير مجوف ـ ما سوى ذلك، وأن له وفرة ـ الشعر المتدلي على الأذنين ـ سوداء، وله شعر قطط ـ أي قصير أجعد)! كما أنهم رووا (أن الله اشتكى عينيه فعادته الملائكة)! وأنه (بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه)، وكأنه ندم على تسرعه بإهلاكهم، تعالى الله عن ذلك. و (أن العرش ليئط من تحته ـ أي يصوت ويهتز ـ أطيط الرحل الجديد)، وكأنه سبحانه لم يستطع أن يصنع لنفسه عرشاً قوياً يستطيع أن يتحمل ثقله، تعالى الله سبحانه عن ذلك علواً كبيراً. (راجع التمهيد: ج١ ص٦٤ ـ ٦٥).

١ـ سورة الإسراء ـ ٦٩.

٢ـ قال الزمخشري في الكشاف: (.. حتى أنه يستعمل ـ أي هذه التعبيرات غير الحقيقية ـ في ملك لا يعطي عطاء قط ولا يمنعه إلا بإشارته من غير استعمال يد وبسطها وقبضها. ولو أعطى الأقطع ـ أي مقطوع اليد ـ إلى المنكب عطاءً جزيلاً لقالوا: ما أبسط يده بالنوال، لأن بسط اليد وقبضها عبارتان وقعتا متعاقبتين للبخل والجود) راجع الكشاف، المجلد الأول، ص٦٢٧، طبعة دار المعرفة، لبنان.

أولئك اليهود الذين اتهموا الله بالبخل، والذين جاءت هذه الآية الكريمة للرد عليهم.

والآن، تعالوا نلقي نظرة (شمولية) على هذه الآية الكريمة:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) (١).

فماذا نفهم؟ هل نفهم المعنى الحقيقي لكلمة (اليد) بمعنى أن الله تعالى متربّع فوق العرش وقد بسط يديه عن آخرهما يعطي لهذا درهماً، ولذاك ديناراً؟! أم أننا نفهم المعنى غير الحقيقي، الذي يعني: الجود والعطاء؟ الحكم متروك للقراء الكرام.

ثالثاً: في مجال فهم (الكلمة) القرآنية

يقول الله تعالى: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ) (٢).

قلت له: هل يمكن أن تشرح لي معنى الآيتين الكريمتين؟

أجاب: المعنى واضح جداً، فالشمس والقمر يسيران بحساب دقيق، لا يمكن أن يتسرب إليه الخطأ أبداً، والنجم والشجر يخضعان لله!

سألته: وهل يمكن أن تكشف لي عن الارتباط بين (النجم) و (الشجر) حتى يسوقهما القرآن الكريم بعصا واحدة؟!

فلم يحر جواباً!

والآن، لنرجع إلى اللغة، لنرى ماذا تقول:

(النجم: ما نجم أي طلع من النبات على غير ساق، وهو خلاف الشجر).

ثم: نعود إلى التفاسير لنجدها تؤكد المعنى ذاته. وهذا المعنى هو الذي ينسجم مع السياق القرآني إذا لاحظنا علاقة (النجم) بـ (الشجر)، فعندما نفسر (النجم) هنا بأنه ما لا ساق له من النباتات يكون الارتباط واضحاً بينه وبين (الشجر)، باعتبار أن (النجم) هو النبات الضئيل الحجم و (الشجر) هو النبات الكبير الحجم.

أما لو فسرنا (النجم) بأنه يعني: (الكوكب)، فعندئذ لنا أن نتساءل: ما هي العلاقة بين (الكوكب) وبين (الشجر)؟ هل هي علاقة العظمة والضآلة؟ إذن، كان الأحرى بالقرآن أن يقول: (والنجم والذرة يسجدان مثلاً، أم علاقة أخرى غيرها؟ إذن، فاشرحوها لنا!

هذا بالإضافة إلى مؤشر استحساني، هو أن القرآن الكريم ذكر في الآية السابقة كوكبين من الكواكب السماوية وهما (الشمس) و (القمر) عندما قال: (الشمس والقمر بحسبان).

من هنا كان المناسب للسياق أن يذكر في قبال ذلك كائنين أرضيين، ومن هنا فقد ذكر (الشجر) و (النجم)، حسب المعنى السالف للنجم.

أما لو فسرنا (النجم) بالكوكب فإننا سنكون أمام ثلاثة كائنات سماوية، وكائن واحد أرضي.

١- سورة المائدة: ٦٤.

٢- سورة الرحمن: ٥ - ٦.

إلى هنا، نكون قد انتهينا من البحث الأول من بحوث (الفهم التجزيئي للقرآن) وكان يدور حول (فصل الجملة القرآنية عن السياق).

وتبقى هنا ملاحظتان:

الأولى: أن (السياق القرآني) وإن كان عاملاً هاماً في فهمنا لمعاني القرآن، إلا أنه يجب أن يسير جنباً إلى جنب مع العوامل الأخرى المساعدة على فهم الآيات الكريمة، من (التفسير) و (الروايات) و (موارد نزول الآيات) وما أشبه.

الثانية: في حالة تعارض الروايات الصحيحة مع (السياق القرآني المتصوّر) تقدم الروايات بالطبع، وهذا لا يعني أن من الممكن أن يختل (السياق القرآني) لسبب من الأسباب لأن ذلك يعني عجز الله سبحانه، وإنما يعني أن (المدعى سياقاً) كان خطأ واشتباهاً، وبعبارة أخرى إن تناقض الروايات مع (السياق المتصور) يدل على وجود (سياق واقعي) إلا أننا تصورنا (سياقاً موهوماً) دفعنا إلى الإحساس بذلك التناقض.

(٢)

التجزئة الموضوعية

المشكلة الثانية التي يعاني منها الكثير من أبناء الأمة، هي (التجزئة الموضوعية) في فهم القرآن الكريم. فهذه القطاعات تحاول أن تفهم كل آية، آية، من القرآن، بشكل مستقل، بعيداً عن فهم الآيات الأخرى، وكأن كل آية عالم مستقل، وقائم بذاته. وقد ترتب على ذلك أمران:

١ - الفهم الخاطئ لبعض الآيات القرآنية.

فالقرآن (كائن حي) يرتبط بعضه مع بعض، ويتفاعل بعضه مع بعض، والفصل بين أجزاء هذا الكائن، يعني الحكم عليه بالموت!

وكما أن الطبيب يجب عليه أن يقوم بـ (فحص شامل) لجسد المريض، دون أن يقتصر على العضو الفاسد. وكما أن بعض الأمراض العضوية، توجد جذورها في أعضاء أخرى، ولا يستطيع الطبيب القضاء على المرض إلا بفحص تلك الأعضاء، والقضاء على النقص الطارئ فيها.

كذلك - ولا مناقشة في الأمثال - لا يستطيع الفرد أن يفهم القرآن بشكل سليم إلا بعد أن يجمع بعضه مع بعض، ويلاحظ التفاعل، والارتباط فيما بين أجزائه المتفرقة.

ومن هنا جاء في الأحاديث: (يشهد بعضه ببعض، وينطق بعضه ببعض).

لقد وجدت على امتداد التاريخ الإسلامي مذاهب كثيرة منحرفة مثل: (الصفاتية) و (الحشوية) و (المشبهة) و (الكرامية) و (الجبرية) ([١]) وغيرها. وهذه المذاهب كانت تستند إلى بعض الآيات القرآنية في دعم أفكارها

١- للمزيد من التفاصيل راجع (التمهيد) ج٣ ص٥٦ - ٧٢.

الخاطئة، وكان الخطأ الذي ارتكبته هذه المذاهب - أو على الأصح: جزء الخطأ - هي (النظرة التجزيئية) إلى آيات القرآن. كانوا يجدون آية تتحدث في موضوع معين، وكان ظاهرها يعطي معنى معيناً، فكانوا يتمسكون بذلك المعنى، ضاربين بسائر الآيات الواردة في هذا الموضوع عرض الجدار! هذا، في الجانب العقائدي.

أما في الجانب العملي، فقد أخطأ الكثيرون في فهم بعض الآيات القرآنية، التي تصوروها تدعو إلى الكسل، وإلى الجلوس في زوايا البيوت، وانتظار (الفرج) من السماء! ذلك لأنهم نظروا إلى هذه الآيات نظرة (أحادية الجانب) ولم يجمعوها مع سائر الآيات القرآنية التي تدعو إلى العمل، والجهاد، والتحرك (١).

إذن، فالنظرة التجزيئية إلى آيات القرآن الكريم تعني في كثير من الأحيان، فهم هذه الآيات بشكل خاطئ.

٢ - الفهم الناقص لـ (الموضوعات القرآنية).

فالقرآن الكريم لم يُجمع بشكل موضوعي، أي لم يوضع كل موضوع منه في فصل مستقل، بل أن الآيات المتعلقة بموضوع واحد تتقاسمها عشرات السور، ولذلك أصبح ضرورياً على كل من يريد أن يخرج بـ (رؤية قرآنية متكاملة) حول موضوع ما، أن يمارس (النظرة الشمولية) للآيات المرتبطة بذلك الموضوع.

أما (التجزئة الموضوعية) فهي لا تعطينا إلا رؤية ناقصة، ومبتورة في كثير من الأحيان، هذا بالإضافة إلى أننا نسخر بسبب ذلك من الكثير من المعطيات التي يمنحنا إياها (الفهم الشمولي) حينئذ، كما سنوضح ذلك فيما بعد.

والسؤال الآن هو: كيف نقوم بـ (الفهم الموضوعي) للقرآن الكريم؟!

والجواب: إن العملية يجب أن تسير في أربع مراحل:

١ - جمع الآيات القرآنية المرتبطة بالموضوع المقصود، من مختلف السور القرآنية.

أما كيف يتم ذلك؟ فعن أحد طريقين:

أحدهما: الكتاب الذي ألفه المستشرق الفرنسي (جول لابوم) والذي نسق فيه الآيات حسب مواضيعها تحت عنوان (تفصيل آيات القرآن الحكيم) (٢) مع ملاحظة ملحقة أيضاً.

ثانيهما: المعجم الذي وضعه الأستاذ (محمد فؤاد عبد الباقي) والذي تناول فيه (الألفاظ) القرآنية على أسلوب المعاجم اللغوية تحت عنوان (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم).

وأسلوب الرجوع إلى هذا المعجم، هو تجريد (الموضوع) المراد بحثه عن الزوائد الصرفية، ثم البحث عنه في طيات هذا الكتاب، فمثلاً: تبحث عن الزكاة في مادة (ز. ك. و) وعن الصلاة في مادة (ص. ل. و) وعن الصوم في مادة (ص. و. م) وهكذا، وهلم جراً.

٢ - فرز الآيات، وتصنيفها، ووضع كل واحدة منها مع زميلاتها المماثلة لها.

٣ - ترتيب هذه المجموعات، على حسب ما يقتضيه (الإطلاق والتقييد) و (العموم والخصوص) و (التقدم والتأخر) وغير ذلك.

١- بالإضافة إلى أنهم أخطأوا في فهم نفس تلك الآيات.

٢- هذا الكتاب منقسم إلى (١٨) باباً، وهي: التاريخ، محمد (صلى الله عليه وآله)، التبليغ، بنو إسرائيل، التوراة، النصارى، ما بعد الطبيعة، التوحيد، القرآن، الدين، العقائد، العبادات، الشريعة، النظام الاجتماعي، العلوم والفنون، التجارة، علم تهذيب الأخلاق، النجاح. وتندرج تحت كل باب من هذه الأبواب فصول متعددة.

٤ - وأخيراً، استنباط (الرؤية المتكاملة والنهائية) من خلال ذلك.

ولا ننسى أن نؤكد هنا مرة أخرى ضرورة الرجوع إلى بعض التفاسير، وإلى روايات المعصومين (عليهم أفضل الصلاة والسلام).

وهنا، ينتصب سؤال، ليقول: ما هي صور (الجمع) بين الآيات القرآنية؟!

والجواب: هنالك صور عديدة للجمع نذكر منها:

١ - (الجمع التفسيري).

٢ - (الجمع الترتيبي).

٣ - (الجمع الاستنباطي).

٤ - (الجمع الموضوعي).

ولكن: كيف؟ دعنا نعرف.

أولاً: الجمع التفسيري

ويعني ذلك، كشف المدلول الحقيقي للآية القرآنية من خلال آية أخرى تتعرض إلى الموضوع ذاته. وهنا نستعرض بعض النماذج:

أ - يقول القرآن الكريم:

(وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) ([١]).

عند سماع هذا الثواب العظيم، تشرأب الأعناق، وتتساءل: من هم الذين آمنوا؟ وما هي ملامحهم وصفاتهم؟ وما هي الصالحات؟

والجواب، نجده في آية أخرى هي قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) ([٢]).

وفي قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ - اضطربت وخافت - وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) ([٣]).

ب - يقول القرآن الكريم:

١- سورة البقرة: ٢٥.

٢- سورة الأنفال: ٧٤.

٣- سورة الأنفال: ٢ و٣.

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ) (١).

نحن نعرف منذ البداية أن لكل آية مفهوماً ومصداقاً. فمفهوم الصراط مثلاً واضح نعرفه من المعنى اللغوي للكلمة في لسان العرب.

فالصراط بمعنى الطريق المعبّد للسير. والمستقيم بمعنى المعتدل، وأقرب الطرق إلى المقصد. فمفهوم الآية إذن، واضح لا غبار عليه.

ولكن مصداق الآية غير واضح. فلا ندري ما هو الصراط المستقيم الذي يجب أن نسير عليه. ولا ندري من هم الذين أنعم الله عليهم، حتى نهتدي بطريقهم. فغير واضح من الآية واللغة ولسان العرب ما هو الصراط المستقيم؟!

فماذا علينا أن نفعل؟!

علينا أن نعرف ذلك من خلال الربط بين هذه الآية، والآيات الأخرى، ونكتشف مصداق الآية. فنقرأ في سورة (يس) آية ٦٠ قوله تعالى:

(وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ). فنعرف أن الصراط المستقيم هو عبادة الله تعالى، والتزام منهجه في الحياة العملية والاجتماعية.

ونقرأ في آية أخرى قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ) (٢). فنعرف أن المراد من (الذين أنعمت عليهم) هم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون.

وهذا معنى قول الإمام الرضا (عليه السلام): (من ردّ متشابه القرآن إلى محكمة فقد هدي إلى صراط مستقيم).

(وأن القرآن يفسر بعضه بعضاً) (٣).

ج - والآن، لنتساءل من هم (الضالون)؟! من هم هؤلاء الذين ندعو الله تعالى كل يوم عشر مرات على الأقل، لكي يبعدنا عنهم؟!

من خلال مراجعة الآيات الأخرى، نجد أن القرآن الكريم يحدّد (الضلال) فيما يلي:

١ - الكفر - بكافة أشكاله وألوانه - وفي ذلك يقول القرآن:

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً) (٤).

(وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ) (٥).

٢ - التعدي على حقوق الآخرين، وفي ذلك يقول القرآن:

(بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ) (١).

١- سورة الحمد: ٦ و٧.

٢- سورة النساء: ٦٨.

٣- القرآن كتاب حياة: ٦١ - ٦٢.

٤- سورة النساء: ١٣٦.

٥- سورة البقرة: ١٠٨.

٣ ـ الانحراف ـ بكافة ألوانه وأشكاله ـ وفي ذلك يقول القرآن:

(وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (٢).

(وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِيناً) (٣).

وهكذا، استطعنا أن نكتشف ـ من خلال الآيات الأخرى ـ أن المراد بـ (الضالين) هم كل المنحرفين فكرياً، والمنحرفين سلوكياً، والذين يتعدّون على حقوق الآخرين.

وهذا، ما يطلق عليه (تفسير القرآن بالقرآن).

ثانياً: الجمع الترتيبي

وذلك يعني: فرز مجموعة من الآيات، وترتيبها ترتيباً منطقياً. ولهذا النوع من (الجمع) معطيات وفوائد، منها:

١ ـ حل التناقض المتوهّم بين الآيات القرآنية.

ذلك أننا حين ننظر إلى الآيات بشكل فوضوي، فقد نتصور اختلافاً بين مفاهيم هذه الآيات، ولكننا بعد تنسيقها وتنظيمها لا نجد أي اختلاف، بل نجد الأمر من قبيل (الخصوص بعد العموم) أو (التقييد بعد الإطلاق) أو ما أشبه ذلك، مما لا نرى مثيلاً له حتى في كلماتنا اليومية.

٢ ـ فهم (مرحلية) هبوط الأحكام الإلهية.

ذلك أن الأمر أو النهي عندما يتعلق بقاعدة من قواعد التصور الإيماني، أي بمسألة اعتقادية، فإن الإسلام يقضي فيها قضاءً حاسماً منذ اللحظة الأولى.

ولكن، عندما يتعلق الأمر أو النهي بعادة وتقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يتريث فيه، ويأخذ المسألة باليسر والرفق والتدرج، ويهيئ الظروف الواقعية التي تيسّر التنفيذ والطاعة.

ومن ذلك نستفيد درساً عظيماً هو: أن من الضروري أن يطوي (الداعية) المراحل بهدوء، وتؤدّة (٤). أما (خرق المراحل) والقفز عليها فهو لا يسبب إلا الفشل، والانتكاس.

والآن، لنضرب بعض الأمثلة:

أ ـ في مسألة تحريم الخمر، لم يكن الأمر أمر توحيد أو شرك. وإنما كان أمر عادة وألف، والعادة تحتاج إلى علاج، ولذلك تدرّج القرآن من مرحلة إلى مرحلة، حتى وصل إلى التحريم النهائي. وقد ورد عن الإمام الباقر

١ـ سورة لقمان: ١١.

٢ـ سورة (ص): ٢٦.

٣ـ سورة الأحزاب: ٣٦.

٤ـ لا نعني بالتدرج: تحليل الحرام أو تحريم الحلال، بل عدم مفاجأة الطرف الآخر بالواجبات الثقيلة في أول وهلة بل التريث حتى يستعد نفسياً لذلك.

(عليه السلام):

(ما بعث الله نبياً قط، إلا وفي علم الله تعالى أنه إذا أكمل له دينه كان فيه تحريم الخمر، ولم يزل الخمر حراماً، وإنما ينقلون من خصلة ثم خصلة. ولو حمل ذلك عليهم جملة لقطع بهم دون الدين).

وعنه: (ليس أحد أرفق من الله تعالى، فمن رفقه تبارك وتعالى أنه ينقلهم من خصلة إلى خصلة، ولو حمل عليهم جملة - أي: مرة واحدة - لهلكوا) (١).

والآن، لننظر كيف تدرّج القرآن الكريم في تحريمه للخمر:

(١) في البداية، بدأ القرآن بتحريك الوجدان الديني، والمنطق العقلاني في نفوس المسلمين وذلك ببيان أن الإثم في الخمر أكبر من النفع فقال:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ)؟

(قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) (٢).

وفي هذا إيحاء بأن تركها هو الأولى.

(٢) ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ) (٣).

والصلاة في خمسة أوقات، معظمها متقارب، لا يكفي ما بينها للسكر والإفاقة! وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية لعادة الشرب، وكسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي، إذ المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه من مسكر أو مخدر في الموعد الذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت، وتكرر هذا التجاوز فترت حدة العادة، وأمكن التغلب عليها.

(٣) وبعدما تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الحازم الأخير بتحريم الخمر في قوله تعالى: (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (٤).

وعندئذ، قال المسلمون: أجل! لقد انتهينا يا رسول الله! ثم أخذوا يريقون الخمور في الأزقة حتى جرت فيها!

* * * * *

ب - والقتال - هو الآخر - تم تشريعه بشكل تدريجي.

ففي مكة كان المطلوب من المسلمين هو مجرد اتخاذ موقف سلبي تجاه تحرشات الكفار، ذلك لأن أي رد فعل ساخن من قبل المسلمين كان يعني القضاء التام عليهم، واستئصال جذورهم من الوجود.

أما في المدينة، وحيث قوي المسلمون إلى حد ما، فقد تدرج الأمر على النحو التالي - على حسب ما يشير إليه بعض المفسرين -:

(١) في البدء، هبط (الإذن المجرد) من قبل السماء، فكان قوله تعالى:

١- الصافي، في تفسير القرآن: المجلد الأول، ص١٨٧، ط٥.

٢- سورة البقرة: ٢١٩.

٣- سورة النساء: ٤٣.

٤- سورة المائدة: ٩٠ و٩١.

(أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ).

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ) (١).

وفي هذه الآية نجد تحريضاً خفياً للمؤمنين لكي يقاتلوا أعداءهم - الذين ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم - كما نجد تشجيعاً لهم على القتال ذلك لـ (أن الله على نصرهم لقدير).

لكن المسألة لا زالت في مرحلة (الإذن المجرد)!

(٢) بعدئذ، يخطو القرآن خطوة أخرى على الطريق لكي يأمر المسلمين بمقاتلة من يتعرض لهم من المشركين، وفي ذلك يقول القرآن الكريم:

(فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً) (٢).

ويقول في الآية التالية:

(فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً) (٣).

وفي هذه المرحلة، أصبح الأمر أمر (ردّ فعل) من طرف المسلمين! فالقضية أصبحت مرتبطة بموقف أولئك المشركين، إن سلماً فسلم، وإن حرب فحرب!

(٣) ثم تسير القضية في خط تصاعدي فيأمر القرآن الكريم الأمة المسلمة بمقاتلة من يليها من الكفار، ويقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (٤).

قال الحسن: (كان هذا قبل الأمر بقتال المشركين كافة) (٥).

(٤) وتبلغ القضية ذروتها، حينما يأمر القرآن بشن حرب لا هوادة فيها ضد كافة المشركين، حين يقول:

(فَإِذَا انْسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ) (٦).

وهكذا، تدرجت القضية من (الإذن المجرد) إلى الأمر الشامل المؤكد.

وهذا التنظيم للآيات الكريمة نطلق عليه اسم (الجمع الترتيبي).

١- سورة الحج: ٣٩ - ٤٠.

٢- سورة النساء: ٩٠.

٣- سورة النساء: ٩١.

٤- سورة التوبة: ١٢٣.

٥- عن (مجمع البيان) ج٥ ص٨٤.

٦- سورة التوبة: ٥.

ثالثاً: الجمع الاستنباطي

والجمع الاستنباطي يعني: الجمع بين آيتين من القرآن الكريم لاستنباط حكم تشريعي معين، أو فكرة معينة.

والتراث الذي خلفه لنا الأئمة الطاهرون (عليهم الصلاة والسلام) غني بهذا النوع من (الجمع) ولذلك فسنقتصر في هذا الفصل على نماذج منه. وإليكم بعض هذه النماذج:

أ - عن الدؤلي قال: رفع إلى عمر امرأة ولدت لستة أشهر، فأراد عمر أن يرجمها (١).

فجاءت أختها إلى علي بن أبي طالب فقالت: إن عمر يرجم أختي، فأنشدك الله إن كنت تعلم أن لها عذراً لما (أي: إلا) أخبرتني به.

فقال علي: إن لها عذراً. فكبرت تكبيرة سمعها عمر ومن عنده.

ثم انطلقت إلى عمر فقالت: إن علياً زعم أن لأختي عذراً.

فأرسل عمر إلى علي: ما عذرها؟!

قال: إن الله يقول: (وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ) (٢)، وقال: (وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً) (٣)، وقال: (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ) (٤) وكان الحمل هنا ستة أشهر (٥).

قال الراوي: ثم بلغنا أنها ولدت آخر لستة أشهر (٦).

وهكذا، استطاع الإمام علي (عليه السلام) أن يستنبط من خلال هذه الآية المتباعدة في الترتيب القرآني (٧) والتي قد لا يبدو عند النظرة العابرة وجود أي ترابط فيما بينها، استطاع أن يستنبط منها حكماً عظيماً من أحكام الإسلام، وأن ينقذ امرأة بريئة من حكم الرجم.

ب - إن سارقاً اعترف على نفسه بالسرقة، فأحضروه إلى مجلس المعتصم الملك العباسي، كي يجري عليه الحد، ولكن المعتصم لم يعرف حده، فأحضر فقهاء بغداد وفيهم ابن أبي داود، والإمام العظيم محمد بن علي الجواد (عليه السلام)، فسألهم: من أين تقطع يد السارق؟

فقال ابن أبي داود: من مفصل الكف واستدل بآية التيمم: (فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ) (٨).

ولكن العلماء الآخرين أطبقوا على قطع اليد من المرفق مستدلين بآية الوضوء: (فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ)

١- باعتبار أنها ولدت قبل إكمال تسعة أشهر، مما أثار ريبة عمر في كونها زانية قبل زواجها.

٢- سورة البقرة: ٢٣٣.

٣- سورة الأحقاف: ١٥.

٤- سورة لقمان: ١٤.

٥- فإذا كانت مدة الرضاع أو الفصال - لا فرق - حولين (أي أربعة وعشرين شهراً) وكانت مدة الحمل والفصال معاً ثلاثين شهراً، فالنتيجة هي: أنه يمكن أن تكون فترة الحمل ستة أشهر فقط.

٦- راجع (الغدير) ج٦ ص٩٣ ط٣.

٧- الآية الأولى في الجزء الثاني من القرآن الكريم، والثانية في الجزء السادس والعشرين والثالثة في الجزء الواحد والعشرين.

٨- سورة النساء: ٤٦.

(١).

كل ذلك والإمام الجواد (عليه السلام) ساكت لا يتكلم بشيء. حتى التفت إليه المعتصم قائلاً: ما تقول؟! غير أن الإمام (عليه السلام) لم يك يريد الرد على هؤلاء

فقال: قالوا وسمعت!

فتطلع المعتصم إلى رأي جديد يضمره الإمام (عليه السلام)، فألح عليه قائلاً: لا رأي لي عند هؤلاء، بالله عليك إلا ما حكمت.

فقال الإمام (عليه السلام): (إن النبي أمر أن توضح المواضع السبعة (التي منها الكفان) في السجود على الأرض. ويقول الله الحكيم: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ) (٢) فلا تقطع الكف التي هي من المساجد، (بل) تقطع الأصابع الأربع فحسب) (٣).

وهكذا، استطاع الإمام الجواد (عليه السلام) أن يكشف حدود قطع يد السارق بالجمع بين آيتين كريمتين هما قوله تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا) وقوله تعالى (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ).

ج - عن علي بن يقطين: قال: سأل المهدي (الملك العباسي) أبا الحسن (عليه السلام): (أي: الإمام الكاظم) عن الخمر فقال: هل هي محرمة في كتاب الله؟ فإن الناس يعرفون النهي ولا يعرفون التحريم.

فقال له أبو الحسن (عليه السلام): بل هي محرمة.

قال: في أي موضع هي محرمة بكتاب الله يا أبا الحسن؟!

قال: قول الله تبارك وتعالى:

(قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ) (٤).

فأما قوله: (ما ظهر منها) فيعني الزنا المعلن، ونصب الرايات التي (كانت) ترفعها الفواجر في الجاهلية.

وأما قوله (وما بطن) يعني: ما نكح من الآباء، فإن الناس كانوا قبل أن يبعث النبي (صلى الله عليه وآله) إذا كان لرجل زوجة، ومات عنها، تزوجها ابنه من بعده إذا لم تكن أمه، فحرم الله ذلك.

وأما (الإثم) فإنها الخمر بعينها، وقد قال الله في موضع آخر: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) (٥).

فأما الإثم في كتاب الله فهي الخمر. والميسر فهي النرد، وإثمهما كبير.

فقال المهدي: هذه والله فتوى هاشمية! (٦).

١- سورة المائدة: ٩.

٢- سورة الجن: ١٨.

٣- راجع: (العقوبات في الإسلام ص٢٥ - ٢٦).

٤- سورة الأعراف: ٣٣.

٥- سورة البقرة: ٢١٩.

٦- راجع (البرهان في تفسير القرآن) المجلد الثاني ص١٤، ط٣، وكذلك أيضاً (الصافي في تفسير القرآن) المجلد الأول ص١٨٨، ط٥.

رابعاً: الجمع الموضوعي

و (الجمع الموضوعي) يعني: فرز الآيات القرآنية التي تتحدث حول موضوع معين، وتصنيفها إلى مجموعات، وترتيب هذه المجموعات حسب تسلسلها المنطقي، ومن ثم استخراج الحكم القرآني النهائي حول ذلك الموضوع.

ويختلف (الجمع الموضوعي) عن (الجمع الاستنباطي) في نقاط كثيرة، منها:

١ - (الجمع الاستنباطي) يتم عادة ضمن آيتين أو ثلاث، فهو جمع محدود، بينما (الجمع الموضوعي) يتم عادة ضمن مجموعة كبيرة من الآيات.

٢- (الجمع الاستنباطي) تكون نتيجته غالباً حكماً شرعياً - بالمعنى المتداول لهذه الكلمة - بينما تتسع آفاق (الجمع الموضوعي) لتشمل كافة القضايا: السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والدينية، وغيرها.

٣ - (الجمع الاستنباطي) يقتصر على فئة محدودة من (الراسخين في العلم) - باعتبار صعوبة استخراجه - بينما تفتح أبواب (الجمع الموضوعي) أو (الفهم الموضوعي) - لا فرق - لكل الفئات الاجتماعية تقريباً.

والحقيقة أن (الجمع الموضوعي) أو (الفهم الموضوعي) لآيات القرآن الكريم، يعتبر من أهم أنواع (الجمع القرآني)، وذلك لسببين:

الأول: (الميزات) التي يتمتع بها هذا النوع من الجمع، والتي أسلفنا بعضها قبل قليل.

الثاني: (المعطيات) و (النتائج) التي يفرزها هذا النوع من الجمع، والتي من أهمها: الخروج بـ (رؤية قرآنية متكاملة) حول موضوع معين.

والآن، لنستعرض بعض النماذج من (الجمع الموضوعي) لآيات القرآن، مع مراعاة الاختصار، لتكون نوافذ متواضعة، تفتح أمام عيون القراء الكرام، الآفاق الواسعة لـ (الفهم الموضوعي لآيات القرآن الكريم).

١ - الشفاعة، ماذا تعني؟

عندما نلقي نظرة موضوعية على الآيات التي تتحدث حول الشفاعة، نجدها تنقسم إلى أربع مجموعات:

المجموعة الأولى: لا، للشفاعة

ويندرج ضمن هذه المجموعة كل الآيات التي تنفي الشفاعة، والتي تنقسم إلى أربعة أقسام:

١ - الآيات التي تنفي الشفاعة بشكل مطلق، وينحصر هذا القسم في الآية الكريمة التالية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ([1]).

١- سورة البقرة: ٢٥٤.

٢ - الآيات التي تنفي (الشفاعة) التي كان يتصورها اليهود، والتي سوف نتحدث عنها فيما بعد، يقول القرآن الكريم:

(يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ) (١).

ويقول: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٢٢) وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ) (٢).

٣ - الآيات التي تؤكد أن (لا شفاعة للكفار) في يوم القيامة، مثل:

(يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (٣).

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلاَ الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ) (٤).

(.. وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) (٥).

٤ - الآيات التي تنفي أن تملك الأصنام المعبودة: الشفاعة، مثل:

(وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) (٦).

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٧).

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ) (٨).

(أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لاَ يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلاَ يَعْقِلُونَ)؟ (٩).

(ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنْقِذُونِ)؟ (١٠).

١- سورة البقرة: ٤٧ - ٤٨.

٢- سورة البقرة: ١٢٢ - ١٢٣.

٣- سورة الأعراف: ٥٣.

٤- سورة الشعراء: ٩١ - ١٠٠.

٥- سورة المدثر: ٤٦ - ٤٨.

٦- سورة الأنعام: ٩٤.

٧- سورة يونس: ١٨.

٨- سورة الروم: ١٣.

٩- سورة الزمر: ٤٣.

١٠- سورة يس: ٢٣.

المجموعة الثانية: الشفيع، هو الله

المجموعة الثانية: هي مجموعة الآيات التي تصرح بأن الشفاعة مختصة بالله تعالى، وليس هنالك شفيع غيره. وفي هذا المجال يقول القرآن:

(وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (١).

(وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ) (٢).

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ) (٣).

(قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (٤).

المجموعة الثالثة: هنالك شفعاء

ولكن بعد إذن الله. ونقرأ في هذه المجموعة الآيات التالية:

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ) (٥).

(مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) (٦).

المجموعة الرابعة: شروط خاصة. وفي هذه المجموعة نقرأ الآيات التالية:

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً * لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً) (٧).

(وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى) (٨).

(وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) (٩).

١ـ سورة الأنعام: ٥١.

٢ـ سورة الأنعام: ٧٠.

٣ـ سورة السجدة: ٤.

٤ـ سورة الزمر: ٤٤.

٥ـ سورة البقرة: ٢٥٥.

٦ـ سورة يونس: ٣.

٧ـ سورة مريم: ٨٦ ـ ٨٧.

٨ـ سورة الأنبياء: ٢٨.

٩ـ سورة النجم: ٢٦.

(يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إلاَ مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) (١).

(مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ) (٢).

والآن، لنلقي نظرة تحليلية - ولكن موجزة - حول هذه المجموعات القرآنية.

١ - المجموعة الأولى من الآيات الواردة حول الشفاعة لا تتناقض مع بقية المجموعات، ذلك لأن سائر المجموعات تثبت أقساماً معينة من الشفاعة، وهذه المجموعة تنفي أقساماً أخرى، ترتبط بالأولى لا من قريب ولا من بعيد. فهذه المجموعة تنفي:

(أ) الشفاعة الاعتباطية، التي لا تتقيد بقيد أو شرط، كما هو مورد القسم الأول من المجموعة الأولى (٣).

(ب) الشفاعة التي كانت يحلم بها اليهود، الذين كانوا يقولون: إننا أولاد الأنبياء، ومهما كانت ذنوبنا ثقيلة، فإن آباءنا سوف يشفعون لنا.

هذا النوع من الشفاعة مرفوض في رؤية القرآن، وذلك لأن مجرد الانتساب إلى عائلة (الرسالة) لا تكفي تبريراً لارتكاب المعاصي والذنوب، ومن ثم انتظار الرحمة والغفران الإلهيين من دون أي جهد أو تعب.

(ج) كما أن الكفار الذين قطعوا كل علاقاتهم مع الله، واتخذوا من دونه أوثاناً وشركاء، هؤلاء لا يمكن أن تقبل شفاعة أحد في حقهم، يوم القيامة.

(د) ومن الطبيعي أن (الأصنام) المعبودة من دون الله، لا يمكن أن تقوم بمهمة الشفاعة، خلافاً لكل التصورات الجاهلية التي كانت تقدّس الأصنام لـ (تقربهم إلى الله زلفى) ولتقوم بمهمة الشفاعة لهم عند الله.

٢ - وإذا تجاوزنا عن هذه الأقسام الأربعة من (الشفاعات المرفوضة)، نصل إلى (الشفاعة المقبولة). هذه الشفاعة - كما تؤكد ذلك (المجموعة الثانية) - هي مختصة بالله، ويعني ذلك أن من سوى الله لا يستطيع أن يشفع للعصاة باستقلاله.

إذن، فالشفاعة الاستقلالية هي مختصة بالله. بينما (الشفاعة التبعية) يمكن أن تكون نصيب الآخرين (٤).

١- سورة طه: ١٠٩.

٢- سورة غافر: ١٨.

٣- والذي يؤيد ذلك أمران:

أ - أن ذلك هو مقتضى الجمع بين الآيات المختلفة الواردة في الشفاعة.

ب - قوله تعالى في تلك الآيات: (وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ) (البقرة: ٢٥٤)، فكما أن المنفي في جملة (وخلة) هو الخلة الباطلة، بدليل قوله تعالى في آية أخرى: (الأخِلاَءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَ الْمُتَّقِينَ) (الزخرف: ٦٧)، فكذلك المنفي في قوله (ولا شفاعة) هو الشفاعة الباطلة.

٤- كما أن (علم الغيب) مختص بالله، لكن بمعنى أن أحداً لا يستطيع - باستقلاله - أن يخرق حجب الغيب، ولكنه يستطيع - بالتتبع وبعطاء الله - أن يطلع على ذلك. يقول القرآن الكريم: (قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلاَ اللَّهُ) (النحل: ٦٥) ويقول: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ) (فيطلعهم على الغيب) (آل عمران: ١٧٩) وليس بين الآيتين أي تناقض، فالأولى تنفي أن يطلع أحد على الغيب باستقلاله - سوى الله - بينما الآية الثانية: تؤكد أن من الممكن أن يمنح الله لبعض رسله (علم الغيب)، فيكون علمهم بالغيب علماً تبعياً لا استقلالياً.

٣ ـ إذن، فإن هنالك شفعاء آخرين، من دون الله، إلا أنهم لا يستطيعون أن يشفعوا إلا من بعد إذنه، وهو ما تؤكده (المجموعة الثالثة) من آيات الشفاعة.

٤ ـ ولكن متى يأذن الله؟!

إن المجموعة الرابعة هي التي تجيبنا على هذا السؤال، فهي تحدد شروطاً خاصة في (المشفوع له)، ومن دون توفر هذه الشروط، فإن الله سبحانه، لا يأذن بالشفاعة.

وهذه الشروط هي: أن يكون المشفوع لـه (مرضياً لله) و (متخذاً عند الرحمن عهداً)، وبعبارة أخرى: أن يكون (الخط العام) في حياته خطاً إلهياً سليماً، وعندئذ تتكفل الشفاعة سائر انحرافاته الجزئية (١).

٢ ـ الاختبار، من وجهة نظر قرآنية

(الجمع الموضوعي المنظم) للآيات القرآنية الواردة في موضوع (الاختبار)، يفرض علينا تصنيف هذه الآيات من المجموعات التالية:

المجموعة الأولى: فلسفة الاختبار

في منظار القرآن الكريم، يأتي (الاختبار) لعدة أسباب:

١ ـ فرز المؤمنين الواقعيين عن غيرهم:

(ألم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ)؟ (٢).

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا) (٣).

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) (٤).

٢ ـ تطهير النفوس المؤمنة مما علق بها من الشوائب والأدران (أدران الخوف والمعصية والتردد و): (.. وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) (٥).

١ـ هنا لابد أن نشير إلى نقطتين:

الأولى: أننا اعتمدنا في هذا الوقت بشكل رئيسي على الدراسة المفصلة التي كتبها الأستاذ الشيخ جعفر سبحاني تحت عنوان: (شفاعت در قلمرو: عقل، قرآن، وحديث) (باللغة الفارسية).

الثانية: أننا اختصرنا هذا البحث إلى أبعد الحدود، وذلك لكي لا نخرج عن موضوع الكتاب، ومن أراد التفصيل فعليه بالكتاب المذكور.

٢ـ سورة العنكبوت: ١ ـ ٣.

٣ـ سورة آل عمران: ١٤٠.

٤ـ سورة محمد: ٣١.

٥ـ سورة آل عمران: ١٤١.

(.. وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) (١).

٣ - قد يكون (الاختبار) - بكلا شقيه: السلبي والإيجابي - من أجل أن يعود الإنسان إلى ربه، فالبعض تعيدهم النعمة إلى الله، بينما البعض الآخر لا يردعهم عما هم فيه من طغيان وتجبّر إلا اختبارات صعبة وقاسية، التي تكون بمثابة (شدة إذن) بالنسبة إليهم.

وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم: (.. وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (٢).

المجموعة الثانية: مواقف الناس

من الطبيعي أن يتخذ الناس تجاه (الاختبار الإلهي) موقفين متعاكسين:

الموقف الأول: موقف (الصابرين) الذين يتحملون الآلام والمحن بقلب قوي، ونفس صلبة، وهؤلاء هم (المؤمنون الصادقون).

وطبيعي: أن تكون رحمة الله، ورضوانه من نصيب هذا القسم.

أما الموقف الثاني: فهو موقف (المتراجعين)، الذين ما إن تصيبهم مصيبة حتى ينقلبوا على أعقابهم. ومن الطبيعي أن يكون نصيبهم الخسارة في الدنيا والآخرة.

بالنسبة إلى الموقف الأول يقول القرآن:

(.. فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا) (٣).

(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (٤).

وبالنسبة إلى الموقف الثاني، يقول القرآن:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ - طرف أو جانب - فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) (٥).

والسؤال الآن هو: ما هي وسائل الاختبار الإلهي؟

والجواب: أنها الفتن المختلفة التي يتعرّض لها المؤمنون، والتي نستعرض بعضها في ضمن المجموعتين القادمتين.

١- سورة آل عمران: ١٥٤.

٢- سورة الأعراف: ١٦٨.

٣- سورة العنكبوت: ٣.

٤- سورة النمل: ٩٦.

٥- سورة الحج: ١١.

المجموعة الثالثة: فتن عسيرة

يقسم القرآن الكريم الفتن العسيرة إلى ثلاثة أقسام:

١ - فتنة القوة، وهي تلك الضغوط الصعبة، التي توجهها القوى الطاغوتية، إلى المؤمنين بالله، ويضرب لنا القرآن في هذا المجال ضمن ما يضرب النموذجين التاليين:

أ - الفتنة التي تعرض لها بنو إسرائيل على يد فرعون. يقول القرآن الكريم:

(وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (١).

ب - الفتنة التي تعرض لها (أصحاب الأخدود)، وفي هذا المجال يقول القرآن:

(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) (٢).

ويستعرض القرآن بعض المشاهد من هذه القصة حين يقول:

(قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ) (٣).

٢ - فتنة الضغوط الاجتماعية، هذه الضغوط التي تتراكم على الإنسان لكي تحرفه عن مسيرته السليمة.

وفي هذا المجال يؤكد القرآن الكريم أن ذلك ضرورة حيوية لا يمكن التخلي عنها.

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ)؟ (٤).

بيد أن من الضروري أن يحافظ الإنسان على استقامته وصموده، ويكون كالحديدة المثبتة في الأرض كلما ازدادت عليها الضربات ازدادت قوة ورسوخاً، يقول القرآن:

(وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ..) (٥).

٣ - وهنالك أيضاً فتن أخرى يتحدث عنها القرآن في الآيات التالية:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ) (٦).

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) (٧).

١- سورة البقرة: ٤٩.

٢- سورة البروج: ١٠.

٣- سورة البروج: ٤ - ٧.

٤- سورة الفرقان: ٢٠.

٥- سورة المائدة: ٤٩.

٦- سورة البقرة: ١٥٦.

٧- سورة آل عمران: ١٨٦.

المجموعة الرابعة: فتن مُغرية

ويقسم القرآن الكريم هذه الفتن إلى قسمين:

١ ـ فتنة الشيطان.

وفي البداية يعطي القرآن قاعدة كلية، هي أن على الإنسان أن يحذر الشيطان، لأنه يحاول إغواءه: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً) (١).

ولكن الشيطان، لا يستطيع أن يغري إلا الذين لا يؤمنون: (إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ) (٢)، أما بالنسبة إلى المؤمنين فـ (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً) (٣).

٢ ـ فتنة المادة، من الأزواج، والأولاد، والأموال وغير ذلك.

وفي هذا المجال يقول القرآن:

(وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (٤).

(وَلاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) (٥).

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ) (٦).

(إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) (٧).

(إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ) (٨).

والخلاصة أن الاختبار يأتي من أجل الفرز أو التطهير أو الإرجاع إلى الله أو العقوبة.

وأن من الناس من يصمد ويجتاز الامتحان بنجاح، وهؤلاء ينالون سعادة الدنيا والآخرة.

ومنهم من ينقلب على عقبيه، وهؤلاء، سوف يخسرون الدنيا والآخرة.

وأن الوسائل التي يمتحن من خلالها المؤمنون (هي الفتن) ومن خلالها يظهر مدى صدقهم أو كذبهم، وأن هذه الفتن قسمان:

١ ـ فتن عسيرة، ويدخل ضمن هذا القسم: فتنة القوة، وفتنة الضغوط الاجتماعية، وفتن أخرى متفرقة.

٢ ـ وفتن مغرية، ويدخل ضمن هذا القسم كل من فتنة الشيطان، وفتنة المادة.

إلى هنا نختم حديثنا حول (الجمع الموضوعي) لآيات القرآن الكريم، رغم وجود نماذج أخرى كثيرة في إطار هذا الموضوع.

١ـ سورة فاطر: ٦.

٢ـ سورة الأعراف: ٢٧.

٣ـ سورة النساء: ٧٦.

٤ـ سورة الأنفال: ٢٨.

٥ـ سورة طه: ١٣١.

٦ـ سورة الجن: ١٦ و١٧.

٧ـ سورة الكهف: ٧.

٨ـ سورة القلم: ١٧.

وعلى القرّاء الكرام أن يحاولوا القيام بـ (الجمع الموضوعي) لآيات القرآن في المواضيع التي تشغل تفكيرهم - لكي يخرجوا برؤية قرآنية شاملة حول تلك المواضيع.

الفصل الثالث

الفهم الشمولي للقرآن

الذينَ يَفهمون القرآن، كتاب مَوت!

كيف تفهم أجيالنا المعاصرة القرآن الكريم؟!

قبل أن نجيب على هذا السؤال، لابد أن نطرح سؤالاً آخر هو:

كيف فهم الطلائع المسلمون الذين عاشوا في عصور الرسالة الأولى هذا الكتاب المجيد؟!

الجواب: لقد فهموا القرآن (كتاباً للحياة) و (برنامجاً للتحرك) و (خريطة للسلوك).

كان الواحد منهم يقرأ القرآن وكأنه هو المخاطب بآياته، وكان يستنبط من كل آية (بصيرة واضحة) يستعين بها في مسيرة الحياة الطويلة.

وعندما كانت تعترض الواحد منهم مشكلة، أو يجد نفسه على مفترق طرق لا يدري أين تؤدي به، كان يلتجئ إلى القرآن، يقلب صفحاته، ويتأمل في آياته، حتى يعثر على حل لمشكلته، ويجد الضوء الذي يكشف من أمامه الظلمات.

وجاءت - من بعدهم - أجيال، أساءت الفهم، وضلت الطريق.

هذه الأجيال، تصورت القرآن (كتاب موت)، بدل أن يكون (كتاب حياة)، فالقرآن لا يعني بالنسبة إلى حياة هؤلاء شيئاً، إنه مجموعة من القضايا الميتافيزيقية، والقصص التاريخية، والطقوس العبادية، وأي ربط لهذه الأمور بالحياة؟!

إذن، فمن الطبيعي - بعدئذ - أن يبحثوا عن (قيم الحياة) و (مناهج الحياة) و (تعاليم الحياة) في أي مكان، غير القرآن بالطبع!

وقد نتج هذا الفصل، الفصل بين القرآن وبين الحياة المعاشة، من عدة عوامل، أهمها:

١ - الهوى والشهوات.

ذلك لأن الفهم (الحيوي) و (الواقعي) للقرآن، يعني:

(أ) تحديد شهوات الإنسان، وأهوائه، كما سيتضح ذلك فيما بعد.

(ب) التنازل عن كثير من الارتباطات، والعلاقات الاجتماعية، بل، ومقاومة الكثير من (مراكز القوى) التي ترتبط مصالح الإنسان المادية بالخضوع لها، والتعاون معها.

ولكن أهواء الإنسان لا ترضى بذلك، إذن، لنفهم (القرآن) ككتاب ميت، وعندئذ ننطلق في حياتنا كما نشتهي ونريد.

٢ - الفهم الخاطئ للدين. ذلك لأن الدين الذي:

(أ) يأمر أتباعه بالعزلة، والانزواء عن المجتمع.

(ب) ويهتم بالآخرة، ولا يعير الدنيا أي اهتمام.

(ج) ويرفض التدخل في السياسة (لأنها خبث، وكذب ونفاق)!

هذا الدين، كما يفهمه (المقدسون البسطاء)، وكما تحاول ترويجه الأوساط الاستعمارية ([١]) هذا الدين لا يرتبط بالحياة بالطبع، وقرآن هذا الدين هو كذلك، إنه كتاب يدعو الإنسان إلى الزهد في الدنيا، وصرف كل جهوده في الآخرة، فما هي قيمة الدنيا؟! إنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة! بل هي أساساً سميت (دنيا) لأنها دنيئة، ومتعفنة! إذن، ما لنا ولها؟ دع الدنيا للآخرين، دعها للكافرين، يتمتعوا بها، ويتقلدوا زمامها، أما أنت فاعبد الله حتى يأتيك اليقين، لتكن دنياك خربة، ومتهاوية، ليس ذلك مهماً، المهم أن تكون آخرتك معمورة!

انظر كيف يلبسون الحق بالباطل، ويقولون الكذب وهم يعلمون!

وبهذا الفهم الخاطئ للدين، هل يكون القرآن كتاباً مرتبطاً بالحياة، كما عبر هو عن نفسه حين قال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) ([٢]). أم يكون كتاباً مرتبطاً بالموت؟!

إن هذا المنطق هو بالضبط منطق (عبد الله بن عمر) حينما مات معاوية، وقام على الأمر يزيد، لقد رفض عبد الله بن عمر أن يتخذ أي موقف رافض، واكتفى بالقول: (أما أنا فعليّ بقراءة القرآن، ولزوم المحراب)!

عبد الله بن عمر كان يقرأ في القرآن قضية موسى وفرعون، وكيف ثار موسى في وجه فرعون الطاغية، حتى قضى عليه، ولكنه كان يقرأ ذلك كـ (قصة)، وليس (كعبرة) و (كتجسيد حي)، ولذلك لم يبذل أي جهد في مقاومة فرعون زمانه (يزيد بن معاوية)، بل اكتفى بقراءة القرآن، ولزوم المحراب!

وهكذا يجني (الفهم الخاطئ الدين) على (الفهم الحيوي، أو الواقعي للقرآن)!

٣ - اعتبار القرآن (كتاباً متعالياً عن الإدراك البشري).

فالذين يعتبرون القرآن مجموعة من الألغاز، والأحاجي، والرموز الغامضة، ويتصورون أن فهم القرآن وقف على فئة محدودة من البشر، هؤلاء بالطبع لا يستطيعون أن يفهموا القرآن، وحتى لو فهموه فإنهم لن يسمحوا

١- يقول الإمام الخميني في كتابه (الحكومة الإسلامية): (المؤسسات الاستعمارية كلها وسوست في صدور الناس: أن الدين لا يلتقي مع السياسة الروحانية وليس عليها، أو ليس لها أن تتدخل في الشؤون الاجتماعية. وليس من حق الفقهاء أن يعملوا لتقرير مصير الأمة. ومن المؤسف جداً أن البعض منا صدّق تلك الأباطيل، وقد تحقق بهذا التصديق أكبر أمل كانت تحلم به نفوس المستعمرين. انظروا الهيئات الدينية فستجدون آثار ونتائج تلك الدعايات واضحة. فهنالك البطالون من عديمي الهمم، وهنالك الكسالى الذين يكتفون بالدعاء، والثناء، والتحدث في بعض المسائل الشرعية وكأنهم لم يخلقوا لغير ذلك. ومما يمكن رؤيته في هذا الجو من تلك الآثار والنتائج هو النغم التالي: (الكلام يتنافى ومقام العالم. المجتهد لا يليق به أن يتكلم، ويحسن به أن يكثر الصمت ويكتفي بقول لا إله إلا الله، أو يكتفي باليسير جداً من الكلام)!..) الحكومة الإسلامية - ص (١٣٨ - ١٣٩).

٢- سورة الأنفال: ٢٤.

لعقولهم أن تقوم بـ (الفهم الواقعي، والحيوي) للقرآن، بل إن ذلك - في نظر بعضهم - هو الانحراف الصريح (١).

والسؤال الآن هو:

ما هي النتائج التي ترتبت على هذا الفصل، الفصل بين القرآن وبين الواقع القائم؟!

والجواب:

١ - أصبح القرآن بذلك كتاباً ميتاً، لا يستطيع الدفع والتحريك، بعد أن كان، وعلى امتداد فترة طويلة من الزمن، المحرك الأساسي للأمة المسلمة على طريق النمو والتقدم.

لقد وعت الأمة بفضل القرآن، وتحركت بفضل القرآن، وتصاعدت بفضل القرآن، واندفعت تنشر النور في أقطار الأرض، وتحطم عروش الطغاة في كل مكان بفضل القرآن، وأنجزت كل شيء بفضل القرآن.

هذا ما كان في السابق، حين كانت الأمة تنظر إلى القرآن كتاباً للحياة، ومنهجاً للتحرك، وخريطة للمسير.

أما اليوم، وحين انفصل القرآن من الحياة، ولم يبق منه إلا رسوم، كما يقول الإمام علي (عليه السلام)، فقد انتهت فاعليته، وأصبح لا يحرك فرداً، ولا يبني كياناً، ولا يرهب عدواً (٢).

٢ - انفصل القرآن بذلك عن أجيالنا الصاعدة. ذلك لأن هذه الأجيال تبحث عن:

(أ) القضايا المتحركة، أما القضايا الجامدة، والقصص الميتة، فهي لا تستثيرها، ولا تستقطب اهتمامها.

(ب) الأمور التي ترتبط بواقعها القائم، وتعالج مشاكلها الحاضرة.

ولأن هذه الأجيال فهمت القرآن كتاباً، عتيقاً، ميتاً، لا يرتبط بالواقع القائم، لذلك ألقت بالقرآن وراء ظهورها، وانطلقت تبحث عن أيديولوجية أخرى تعالج مشاكلها الحاضرة!

وكان المسؤول الأكبر لذلك هو (الفهم الميت للقرآن).

ولو كان هؤلاء قد فهموا القرآن فهماً (حيوياً) و (واقعياً) لما كانوا قد انفصلوا عنه، ونحن واثقون بأن هؤلاء سوف يعودون يوماً ما إلى القرآن، وإلى الأيديولوجية الإسلامية، بعد أن يفهموهما بشكلهما الواقعي الحي.

٣ - ظلت بالفصل بين القرآن وبين (الفهم الواقعي) له، المفاهيم الخاطئة مكرّسة في نفسية الأمة، بينما كان

١- لقد تناولنا مسألة (التفسير بالرأي) بشكل مفصل في الفصل الأول من هذا الكتاب.

٢- يقول الإمام الخميني: (.. وأنا أقول لكم: إنه إذا كان همنا الوحيد أن نصلي وندعو ربنا ونذكره، ولا نتجاوز ذلك، فالاستعمار وأجهزة العدوان كلها لا تعارضنا. ما شئت فصلِّ، ما شئت فأذّن (ونضيف: ما شئت فاقرأ القرآن بشكل ميت) وليذهبوا بما آتاك الله، والحساب على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعندما نموت فأجرنا على الله! وإذا كان هذا تفكيرنا فلا شيء علينا، ولا خوف علينا).

(قيل: إن أحد قادة الاحتلال البريطاني للعراق حينما سمع المؤذن سأل عن الضرر الذي يسببه هذا الأذان للسياسة البريطانية، فلما أخبر بأنه لا ضرر من ذلك قال: فليقل ما شاء ما دام لا يتعرض لنا. وأنت إذا كنت لا تمس السياسة الاستعمارية وكنت في دراستك للأحكام لا تتجاوز النطاق العلمي فلا شأن لهم معك. صل ما شئت. هم يريدون نفطك أي شأن لهم بصلاتك..) (وهذا هو بالضبط ما ينطبق على القراءة الميتة للقرآن الكريم) راجع الحكومة الإسلامية) ص ٢١.

بإمكان (الفهم الحيوي) و (الواقعي) للقرآن الكريم أن يعالج الكثير من هذه المفاهيم، وسنضرب فيما بعد بعض الأمثلة على ذلك.

هذه، كانت بإيجاز النتائج الخطيرة التي ترتبت على (الفهم الميت) أو (الفهم الجامد)، لا فرق، لآيات القرآن الكريم. وينتصب هنا سؤال، ليقول:

ما هي مظاهر (الفهم غير الواقعي) للقرآن؟!

والجواب: إن هنالك ثلاثة مظاهر:

١ - الفهم التجريدي.

٢ - الفهم التاريخي.

٣ - عدم إعطاء الكلمة مدلولها الحقيقي.

دعنا، نلقي قليلاً من الضوء، على ذلك.

أولاً: الفهم التجريدي

يرتكز (الفهم التجريدي) للقرآن الكريم على عنصرين:

الأول: ربط (المفاهيم القرآنية) بعالم الغيب.

الثاني: فصل هذه (المفاهيم) عن الواقع القائم.

إذن، فللقضية جانبان:

جانب إيجابي، يتمثل في (العنصر الأول).

وجانب سلبي، يتمثل في (العنصر الثاني).

ونحن وإن كنا نرتضي الجانب الإيجابي من القضية لأنه صحيح ومؤكد، إلا أننا نرفض الجانب السلبي، لأنه يعتبر (تجزيئاً للدين).

وفيما يلي، بعض الأمثلة السريعة على (الفهم التجريدي) للقرآن:

(١)

يقول القرآن الكريم: (وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ) (١).

كيف يفهم (التجريديون) هذه الآية، والتي تكررت بصيغ مختلفة بالعشرات في أماكن مختلفة من القرآن الكريم؟!

الجواب: إن لله سبحانه ميزة من أهم ميزاته، هذه الميزة تجعل الله متفرداً عن كافة الكائنات، وهي: أنه واحد، أحد، فرد، صمد، (لا شبيه له يعادله، ولا شريك له يشاكله).

١- سورة البقرة: ١٦٤.

ويستطرد (التجريديون) قائلين: (إن النظام الكوني هو خير دليل على وحدانية الله، ذلك لأنه لو كان هنالك إلهان، لتنازع أحدهما مع الآخر، ولاختل نظام الكون، وتهاوت الحياة).

إذن فالقضية لا ترتبط بـ (الواقع البشري) من قريب، ولا من بعيد، بل أنها مجرد قضية اعتقادية ترتبط بعالم الغيب والميتافيزيقيا.

ولكن الحقيقة أن كلمة (لا إله إلا الله) هي منهج كامل للحياة، بكل ما للحياة من ظلال وأبعاد، فهي تعني:

١ - أن العبادة مختصة بالله، وكما يقول القرآن الكريم:

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (١).

٢ - أن الحاكمية مختصة بالله، وفي هذا المجال يقول القرآن:

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ)؟ (٢).

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ).

إلى أن يقول: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (٣).

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (٤).

٣ - أن الطاعة مختصة بالله، وفي هذا المجال يقول القرآن:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)؟ (٥).

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لاَ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ)؟ (٦).

(يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ) (٧).

وهكذا نجد أن الذين يخضعون لمن دون الله، أو يرجعون في حياتهم إلى حكم غير حكم الله، سواء في المجال التشريعي كالأحبار، أو في المجال التنفيذي كالطواغيت، أو يسيرون وراء أهوائهم وشهواتهم، كل هؤلاء ليسوا بموحدين حقيقيين لله.

١- سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣.

٢- سورة الشورى: ٢١.

٣- سورة النساء: ٦٠ - ٦٥.

٤- سورة التوبة: ٣١ (وفي هذا الصدد يقول الإمام الصادق (عليه السلام): أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم لما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً، وحرموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون) راجع (الصافي) المجلد الأول ص٦٩٦، ط٥.

٥- سورة الجاثية: ٢٣.

٦- سورة يس: ٦٠.

٧- سورة مريم: ٤٤.

وبهذا الفهم المتحرك، يصبح شعار (لا إله إلا الله) شعاراً واقعياً، بل أهم شعار مرتبط بالواقع، على الإطلاق، ومن ثم يكتسب حيوية، وفاعلية، وحرارة!

(٢)

يقول القرآن الكريم: (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ) (١).

ما هو مفهوم هذه الآية الكريمة ومثيلاتها، في نظر (التجريديين)؟!

إن هذه الآية تتناول مسألة (العدل الإلهي)، ويعتبر العدل هذا أهم صفة من صفات الله تعالى، وهو يعني أن الجزاء الإلهي للبشر يوم القيامة سيجري بشكل دقيق وعادل، حيث تنصب الموازين الإلهية الدقيقة التي تزن كل شيء سواء كان كبيراً، أو صغيراً (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) (٢).

ويضيف هؤلاء: (إن عدالة الله نابعة من غناه المطلق وعلمه التام، فهو ليس محتاجاً، وليس جاهلاً، ولذلك فهو لا يظلم الناس).

والحقيقة أن (العدالة الإلهية) ليست خاصة بـ (الماورائيات) بل هي تشمل كذلك مختلف جوانب (الحياة الكونية) و (الحياة البشرية)، ذلك لأن العدالة تنقسم إلى:

١ - العدالة الكونية، حيث نجد الكون بكل ما فيه بدءاً من الذرة وانتهاءً إلى المجرة ومروراً بكل الكائنات، نجده قائماً على أسس حكيمة وعادلة.

٢ - العدالة التشريعية، فلم يأت تشريع من تشريعات السماء من أجل العبث، أو التضييق على الناس.

إن كل (الأحكام الإلهية) نابعة من علم دقيق، وحكمة تامة، وعدل تام.

٣ - العدالة الاجتماعية، فالله سبحانه يفسح المجال للجميع لكي يعملوا، ويمدّ الجميع كذلك، وإذا ما تقدمت فئة معينة بسبب العمل، فإنه لن يتدخل لصالح فئة أخرى لا تعمل! حتى لو كانت تلك الفئة تعتنق مبادئه، وتطبق أحكامه. أو بالأحرى بعض أحكامه (٣) ذلك لأن هذا النوع من (التدخل الإلهي) يعتبر ظلماً وحيفا على أولئك العاملين.

فليستيقظ الكسالى الغارقون في الأحلام، النائمون على حرير الأمل الرقيق، وليعلموا أن الله لن يصبح (بديلاً) عنهم، ولن يطهر الأرض من أدناس الجاهلية إلا بعد أن يعمل المؤمنون، ويتحركوا.

٤ - العدالة الجزائية، حيث يلاقي - على أسس من هذه العدالة - المحسن جزاء إحسانه، والمسيء جزاء إساءته، دون أن يظلموا مثقال ذرة. وكما يقول القرآن: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ) (٤).

ولكن هذه (العدالة) ليست خاصة بالآخرة، بل إنها تشمل الدنيا كذلك. فمن أحسن يجد الحسنى في الدنيا ومن

١- سورة غافر: ٣١.

٢- سورة الزلزلة: ٧ و٨.

٣- يقول القرآن في هذا المجال: (كُلاً نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً) الإسراء: ٢٠.

٤- سورة النساء: ٤٠.

بعدها الآخرة، ومن أساء يجد السوء في الدنيا ثم يرد إلى عذاب النار وبئس المصير.

وهكذا، نجد أن (الفهم الواقعي) للقرآن الكريم، يجعله ينبض بالحياة وكأن آياته قد هبطت للتوّ واللحظة. بينما (الفهم التجريدي) يحوّل (المفاهيم القرآنية الحية) إلى مفاهيم ميتة، وباهتة، أو على الأقل يحصرها ضمن إطارات محددة.

ثانياً: الفهم التاريخي

(الفهم التاريخي) للقرآن الكريم يعني أحد أمرين:

الأول: تلقّي قصص القرآن الكريم كمجرد قصص تاريخية، الهدف منها ذاتها، من دون النفوذ إلى العبر الكامنة وراءها.

هذا القسم يفهم التاريخ كأحداث مضت، ويفهم قصص القرآن كقصص أفراد غابرين، ويكتفي بهذا القدر من فهم التاريخ، دون أن يمارس مع ذلك فهماً آخر هو (الفهم العبروي).

الثاني: تلقي (القصص القرآنية) كقصص مرتبطة بـ (ذوات خاصة) و (أفراد معينين)، من دون اعتبار هذه القصص (رمزاً) و (نموذجاً حياً يتكرر في كل زمان ومكان).

فالقرآن، ذكر قصة الحاكم الطاغية (فرعون)، والوزير المداهن (هامان)، والعالم الذي كان في القمة، ثم هوى إلى الحضيض (بلعم بن باعوراء)، والشجرة الطيبة (أهل البيت)، والشجرة الخبيثة (بني أمية)، و..

كل ذلك مفهوم لدى هذا القسم، إنه يعرف التاريخ الذي مضى تماماً، ولكنه يجهل أو يتجاهل التطبيقات الحية (الواقعية) لهذه (الرموز).

إنه لا يريد أن يعرف: (فرعون) و (هامان) و (بلعم) و (أهل البيت) و (بني أمية) و..، الذين يعيشون في عصره، لأن ذلك يعني ضرب كثير من قيمه، وعلاقاته الاجتماعية، ومصالحه، ولذلك فهو يعوض عن جهله بحاضره، وبمعرفته، وبتاريخه الذي مضى، وراح.

والدين يرفض كلا النوعين من (الفهم).

١ - فالقرآن يؤكد أن ما ورد فيه من قصص هي (للعبرة) فيقول:

(هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ.. إلى أن يقول: فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ) (١).

(قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ) (٢).

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ - أي: الرسل - عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ) (٣).

١- سورة الحشر: ٢.

٢- سورة آل عمران: ١٣.

٣- سورة يوسف: ١١١.

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ - أي: فرعون - نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى) (١).

وماذا يعني الاعتبار؟!

إنه لغوياً يعني العبور من شيء إلى شيء آخر، ولهذا سمي الدمع بـ (العبرة)، لأنه ينتقل من العين إلى الخد، وسمي الجسر (معبراً) لأنه به تحصل المجاوزة، وسميت الألفاظ (عبارات) لأنها تنقل المعاني من قلب المتكلم إلى عقل المستمع. ويقال: السعيد من اعتبر بغيره، لأنه ينتقل بعقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه (٢).

وفي هذه الآيات تعني (العبرة)، العبور من القصة، إلى مغزاها، وتجاوز سطور التاريخ، لاستشفاف ما وراء هذه السطور.

وتعني كذلك: العبور من الماضي السحيق إلى الحاضر القائم، من الحياة التي مضت، إلى الواقع الذي نعيش.

٢ - وتؤكد الروايات الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام): أن لقصص القرآن نماذج حية في كل زمان ومكان.

أ - فعن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا عبد الله (عليه السلام) (الإمام الصادق) عن هذه الرواية: (ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن)؟

قال: (ظهره تنزيله، وبطنه تأويله. منه ما مضى، ومنه ما لم يجئ بعد، يجري كما تجري الشمس والقمر).

وفي خبر آخر: (يكون على الأموات كما يكون على الأحياء).

والإمام (عليه السلام) يعني بالظهر، المصداق الظاهري للآية. هذا المصداق الظاهري كان مورد نزول الآية قبل ألف وأربعمائة سنة.

أما البطن: فهو المصداق الباطني للآية، أي المصاديق المتكررة في كل زمان ومكان والتي ينطبق عليها مفهوم الآية.

ولذلك جاء في الحديث: (أن لكل ظهر بطناً). أي أن المصاديق الباطنية متعددة وكثيرة، وتتكرر بشكل خفي. وهذا هو (تأويل) الآيات، أي ما تؤول إليه الآيات في الواقع الخارجي وما تنتهي إليه.

والسؤال الآن: لماذا شبهت الرواية القرآن الكريم بالشمس والقمر؟

والجواب: إن الشمس والقمر يشرقان كل يوم على شيء جديد، وكذلك القرآن إنه ينطبق كل يوم على مصداق جديد. فالقرآن ليس خاصاً لجيل دون آخر، أو لزمان دون زمان، أو لمكان دون مكان. بل هو لكل زمن، ولكل مكان. وكما أن الشمس والقمر، يبدّدان الظلمات، ويضيئان من حولنا الأشياء، كذلك القرآن إنه يضيء لنا طرق الحياة، ويكشف ما خفي علينا من الأمور.

ب - عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال لحمران: (ظهر القرآن: الذين نزل فيهم، وبطنه: الذين عملوا بمثل أعمالهم، يجري فيهم ما نزل في أولئك).

ج - عن أبي بصير عن الصادق (عليه السلام): (ولو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية لمات الكتاب. ولكنه حي يجري فيمن بقي، كما جرى فيمن مضى).

(إن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على

١- سورة النازعات: ٢٥ - ٢٦.

٢- التفسير الكبير ج ٢٩ - ص ٢٨٢.

آخره ما دامت السماوات والأرض).

هـ - عن أبي عبد الله (عليه السلام): (إن القرآن حي لم يمت، وإنه يجري كما يجري الليل والنهار وكما تجري الشمس والقمر، ويجري على آخرنا، كما يجري على أولنا) (١).

إذن.

فمن الخطأ (التسمّر) في فهم القرآن على أفراد معينين، أو على حقب معينة.

ومن الخطأ أن ندفن آيات القرآن في قبو الماضي السحيق.

بل يجب تطبيق القرآن تطبيقاً حياً على الواقع الذين نعيش، وعلى الأفراد الذين نتعامل معهم ضمن هذا الواقع، من الحاكم ورجل الدين، والتاجر، والقوى الاجتماعية، وسائر طبقات الشعب. فالقرآن نزل لكل زمان ومكان.

وفيما يلي نستعرض بعض النماذج عن (الفهم الواقعي) مقابل (الفهم التاريخي) للقرآن الكريم.

(١)

يقول القرآن الكريم:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ)

(يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ)

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)

(قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

(قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)

(قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (٢).

كيف يفسر أصحاب (الفهم التاريخي) هذه المجموعة من الآيات؟!

(إن هذه المجموعة من الآيات تكشف عن عناد اليهود، وخبث طينتهم، وتمردهم على قرارات قيادتهم الرشيدة. لقد دعاهم موسى إلى قتال (العمالقة)، واستخدم في سبيل ذلك كل عوامل الترغيب والترهيب، إلا أنهم (لعنهم الله) أبوا، وسخروا من موسى، ومن ربه كذلك!).

ويستطردون قائلين: (قاتل الله اليهود، كم جرعوا نبيهم من الغصص، وكم أذاقوه من الآلام)؟!

هذا إذن هو كل ما في الأمر، وينتهي بعدئذ كل شيء!

هذه المجموعة من الآيات وعشرات مثلها، لا تهدف إلا النيل من مجموعة بشرية معينة - هم اليهود - وتسجيل اللعنة عليهم على امتداد التاريخ؟!

ولكن، لنتساءل: هل الأمر فعلاً هو كذلك؟!

١- اقتبسنا هذه الروايات من مقدمة كتاب (البرهان في تفسير القرآن) ص٥، طبعة دار الكتب العلمية، إيران.

٢- سورة المائدة: ٢٠ - ٢٦.

إن مشكلة هؤلاء هي أنهم نظروا إلى هذه (القصة القرآنية) كقصة مضت وانتهت، ولم يحاولوا أن يعرفوا (موسى زمانهم) و (بني إسرائيل عصرهم)، ولم يسعوا من أجل تطبيق ما حدث في الماضي السحيق على الواقع القائم.

بينما نجد الروايات الشريفة تؤكد على أن الأمة الإسلامية سوف تسير على خطى اليهود (١)، (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتهم معهم، كما جاء في الحديث الشريف، وهذا يدفعنا إلى البحث عن (المصاديق الجديدة) للقصص التي نقلها القرآن عن اليهود.

والآن، لنلقي نظرة (واقعية) من زوايا مختلفة على هذه الآيات:

١ - لقد أراد بنو إسرائيل الوصول إلى الأهداف الضخمة المرسومة لهم، دون أن يبذلوا أي جهد أو تعب. عندما قالوا: (وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ)!

لقد أرادوا أن ينزل (النصر) عليهم من السماء على طبق من ذهب، وهم جالسون في أماكنهم، دون أن يتحملوا مسؤولية، أو يعملوا شيئاً.

لقد أرادوا (المدينة المقدسة) لقمة سهلة باردة!

ولكن سنن الله في الكون تأبى ذلك (٢) ومن هنا فإنهم ليس فقط لم يصلوا إلى الهدف، بل وأيضاً تلقوا عقاباً إلهياً صارماً نتيجة هذا الكسل والتقاعس.

أليس هذا الواقع ذاته يتكرر الآن عند الكثير من المسلمين؟!

أليس هؤلاء يقبعون في زوايا البيوت، وينتظرون الوصول إلى أهدافهم المنشودة من دون سعي أو عمل؟!

والنتيجة؟! النتيجة هي بالطبع: خيبة الأمل، والسقوط أيضاً، تماماً كما حدث في بني إسرائيل!

٢ - لقد استبدل (بنو إسرائيل): (التواكل) بـ (التوكل).

فعندما طلب (الرجلان اللذان أنعم الله عليهم) من بني إسرائيل أن يقتحموا أسوار المدينة ويتوكلوا على الله، أن يجمعوا بين السعي، والاعتماد القلبي على الله، بين الغيب والشهود، عندما طلبا منهم ذلك قالوا:

(اذْهَبْ أَنْتَ - يا موسى - وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)!

عندئذ وبدل أن (يتوكلوا) على الله، (تواكلوا)، بمعنى أنهم نفضوا أيديهم من المسؤولية، وألقوها على عاتق الله سبحانه.

والآن، لننتقل بقلوبنا من الماضي السحيق، إلى الواقع القائم، ولنتساءل: كم يتكرر هذا المشهد في واقعنا كل يوم؟!

أليس الكثيرون منا يستبدلون بـ (التوكل): التواكل؟!

بل: أليس الكثيرون يعتبرون (التوكل) هو (التواكل)؟! (٣).

١- عن النبي (صلى الله عليه وآله): (والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم، حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، حتى لا تخطأون طريقهم، ولا تخطئكم سنة بني إسرائيل). راجع (الصافي في تفسير القرآن) المجلد الأول ص٤٣٤، ط٥. وأيضاً (البرهان في تفسير القرآن) المجلد الأول ص٤٥٦، طبعة دار الكتب العلمية - إيران.

٢- جاء في الحديث الشريف: (أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها).

٣- يعتبر القرآن الكريم التوكل رديفاً للعمل، وليس بديلاً عنه، فيقول: (ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ

٣ - ومن الله، ننتقل إلى القيادة؟!

لقد جلس (بنو إسرائيل) في أماكنهم، وانتظروا بشكل سلبي هبوط النصر عليهم!

هذا الواقع لا نشاهده الآن؟!

كم هم أولئك الذين يجلسون في بيوتهم، ويضعون كفاً على كف، ويتحسرون على فساد الوضع، ولكنهم لا يحركون ساكناً، بل ينتظرون ظهور الإمام المهدي (عليه السلام) لإصلاح هذه الأوضاع! كما انتظر بنو إسرائيل أن يحارب موسى وربه من دونهم، واكتفوا هم بدور (المنتظر) و (المتفرج).

لقد تحول وللأسف مفهوم (انتظار الإمام المهدي) عند الكثيرين، من فكرة إيجابية تدفع الإنسان إلى البذل والعطاء، إلى (مورفين) مخدر يبرّر السكوت عن الواقع الفاسد، في انتظار الغيب المجهول القادم من وراء ستار المستقبل (١).

وهكذا سارت أمتنا على خطي (بني إسرائيل) حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة، كما تنبأ بذلك من قبل الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله) (٢).

(٢)

يقول القرآن الكريم: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ..) (٣).

جاء في التفاسير أن بعض المسلمين أثقلوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بالنجوى والكلام، فنزلت هذه الآية الكريمة.

وفي الحديث: (.. وكان الرجل إذا أراد أن يكلمه تصدق بدرهم ثم كلمه (الرسول) بما يريد، فكف الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) وبخلوا أن يتصدقوا قبل كلامه. فتصدق علي (عليه السلام) بدينار كان له، فباعه بعشرة دراهم في عشر كلمات سألهن رسول الله (صلى الله عليه وآله)، ولم يفعل ذلك أحد من المسلمين

غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا) كما جاء في الآية السابقة. ويقول: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) (آل عمران: ١٥٩).

١ـ للمزيد من التفاصيل حول مسألة الانتظار بكلا شقيها الإيجابي والسلبي راجع (مهدي انقلابي بزرك) (بالفارسية) الذي ألفه الأستاذ الشيخ ناصر مكارم شيرازي على الصفحات٨٧ - ١١٣.

٢ـ لقد طبق (المقداد) هذه الآية تطبيقاً واقعياً، وذلك حين شاور الرسول (صلى الله عليه وآله) المسلمين في الخروج إلى بدر فقال المقداد: يا رسول الله: أمض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - يعني: الحبشة - لجالدنا معك من دونك حتى تبلغه. فقال له رسول الله خيراً، ودعا له بخير. راجع تاريخ الطبري - غزوة بدر - ج٢ ص١٤٠، ط٢.

٣ـ سورة المجادلة: ١٢.

غيره، وبخل أهل الميسرة أن يفعلوا ذلك..) (١).

ثم نسخ هذا الحكم بالآية التي تليها.

والسؤال الآن هو: ما هو العبرة (الحية) و (الواقعية) التي نستفيدها من هذه الآية الكريمة بالإضافة إلى كونها (فضيلة) تفرد بها الإمام علي (عليه السلام)؟!

والجواب: إن هذه القصة التي تضمنتها الآية الكريمة، تكشف لنا عن نوعين من (الإيمان):

أحدهما: إيمان التضحية.

وثانيهما: إيمان المصالح.

في (إيمان التضحية) يكون الفرد المؤمن (جندياً تحت الطلب)، أي أنه يستعد لتنفيذ كل القرارات، والتضحية بكل ما يملك من مال، وأهل، ونفس، في سبيل الله، والقيم، والمبادئ.

أما صاحب (الإيمان المصلحي) فهو يسير في ركاب (الدين) ما دام هذا الدين لا يضر بمصالحه ولا يكلفه شيئاً، أما عندما يكلفه الدين مصالحه الشخصية، فهو يترك الدين، ويضرب به عرض الحائط (٢).

وقد تجلى من خلال هذه القصة (إيمان التضحية) في شخص الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

كما تجلى (إيمان المصالح) في أولئك الأغنياء الذين التفوا حول الرسول (صلى الله عليه وآله) وكانوا يكثرون من مناجاته والتحدث إليه، فما أن وصل الأمر إلى الإنفاق والبذل، انقطعوا عن الرسول، وتركوه وحيداً في داره! (٣).

والسؤال الآن: إلى أي طراز من هذين الطرازين ينتمي المسلمون في العهد الراهن؟!

إن واقع المسلمين الآن هو الأجدر بالإجابة على هذا السؤال!

(٣)

يقول القرآن الكريم: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلاَ تَفْتِنِّي ألاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (٤).

في البداية، ينبغي أن نلقي نظرة على (تنزيل) هذه الآية الكريمة، ومن ثم، ننتقل إلى (التأويل).

ففي تفسير القمي: (لقي رسول الله (صلى الله عليه وآله) (الجد بن قيس) فقال له: يا أبا وهب ألا تنفر معنا

١- البرهان: ج٤ ص٣٠٩.

٢- عن هذا الطراز من (المؤمنين) يقول القرآن: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ - طرف أو جانب - فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ) الحج: ١١. ويقول: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ) العنكبوت: ١٠.

٣- قال في الميزان: (.. ففي قوله: (وتاب الله عليكم) (عقيب آية التصدق) دلالة على كون ذلك منهم ذنباً ومعصية، غير أنه تعالى غفر لهم) راجع (الميزان: ج١٩ ص١٩٠، ط٢).

٤- سورة التوبة: ٤٩.

في هذه الغزوة؟ (غزوة تبوك).

فقال: يا رسول الله، والله إن قومي ليعلمون أنه ليس فيهم أحد أشد عجباً بالنساء، وإني أخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر (أي بنات الروم).

فلا تفتني وأذن لي أن أقيم.

وقال لجماعة من قومه: لا تخرجوا في الحر.

فأنزل الله على رسوله في ذلك هذه الآية) (١).

إن هذا المشهد التاريخي يمثل لنا (التبرير) بأجلى صوره وأشكاله!

إنه ليس مجرد تبرير عادي (كالتبرير بالحر والبرد وما أشبه) بل إنه تبرير (ديني) بمعنى أنه يتخذ من (الدين) ستاراً لتبرير الهروب من المسؤولية (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني)!

وهو أيضاً لم يرد بصيغة عادية، بل صاحبته مختلف عوامل التأكيد من (القسم) و (إن) و (اللام) التأكيديتين، وغير ذلك، كما نلاحظ في الحديث الشريف.

ولكن هذا (المنطق التبريري) ليس خاصاً على رجل تاريخي اسمه (الجد بن قيس) وكنيته (أبو وهب). وليس خاصاً بحقبة معينة، اندثرت في طيات الماضي العتيق.

إنه نموذج يتكرر في كل زمان، ومكان، ولكن بأنماط وصور مختلفة.

فالذين يعتذرون عن تحمل مسؤولياتهم الدينية، ويقضون أعمارهم في زوايا البيوت، بحجة أنهم يخافون على أنفسهم من (الانزلاق) أو (الكبرياء) أو (الضلال) أو ما أشبه.

والذين يرفضون الانتماء إلى جبهة الحق، بحجة أن هذا الانتماء قد يعرّضهم لمطاردة السلطات والقبض عليهم، وربما (انهيارهم) و (انحرافهم).

كل هؤلاء وهم كثيرون في مجتمعاتنا، وآخرون غيرهم، يمكن اعتبارهم نماذج جديدة يكررون موقفاً مشابهاً لموقف (الجد بن قيس).

وهم مثله تماماً يردّدون (تبريرات) كثيراً ما تلبس بـ (غطاء ديني) ولكن ليسمعوا قول الله تعالى: (ألاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ)! (٢).

هذه كانت بعض النماذج السريعة حول (الفهم الواقعي) للقصص القرآنية، وهنالك نماذج أخرى كثيرة مثلاً: قصة آدم، قصة موسى وفرعون، قصة يوسف، قصة مؤمن آل فرعون، قصة (صاحب الجنتين)، وقصة أصحاب الكهف..

وبإمكان القراء الكرام أن يقوموا بـ (الفهم الواقعي) لها، مستعينين في ذلك بروايات الأئمة الطاهرين (عليهم

١- تفسير الصافي المجلد الأول ص٧٠٥.

٢- لقد طبقت فاطمة الزهراء (عليها السلام) هذه الآية الكريمة بشكل آخر على عصرها الذي كانت تعيشه وذلك في الخطبة التي ألقتها على جمع المهاجرين والأنصار، بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وآله)، قالت: (فوسمتم غير إبلكم، وأوردتم غير مشربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة (ألاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ). راجع كتاب (فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين) (بالفارسية) الذي ألفه عماد الدين حسين الأصفهاني ص٣٧١.

الصلاة والسلام)، وبالتفكير المنطقي السليم.

ثالثاً: عَدَم فهم الأبعاد الحقيقية

(عدم فهم الأبعاد الحقيقية) للآيات القرآنية، ينشأ عن عاملين:

أولهما: عدم استيعاب المتغيرات الزمنية الجديدة وبعبارة أخرى (عدم الوعي بالعصر).

وثانيهما: عدم صبّ هذه الآيات في قوالب عصرية جديدة، مما سبب عدم فهم المغزى الحقيقي لتلك الآيات.

والذي ترتب على ذلك هو ما يلي:

أولاً: ظلّت المفاهيم السلبية الخاطئة مكرسة في نفسية الأمة.

ثانياً: فقدت الأمة أساليب هامة للعمل والتحرك.

وفيما يلي نستعرض نموذجين لـ (عدم فهم الأبعاد الحقيقية) للآيات القرآنية.

(ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى)

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي)

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)

(.. فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ)

(قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)

(إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى) ([١]).

ما الذي تدل عليه هذه الآيات الكريمة؟!

١ - إن هنالك حاكماً، طغى وتجبر، وتعدى كل الحدود المعقولة.

هذا الحاكم كان يعيش مع فئة معينة في القمة، بينما كانت طبقات الشعب من بني إسرائيل تعيش في الحضيض.

وليس ذلك فقط، بل إن هذا الحاكم صادر كذلك حرية هذا الشعب، وجعله يرزح تحت سياط التعذيب.

٢ - وفي مثل هذا الواقع الخانق، أرسل الله من قِبَله رسولاً هو موسى (عليه السلام). فماذا كانت مهمة هذا الرسول؟!

القرآن الكريم يؤكد أن (العمل السياسي) من أجل تحرير الجماهير المستضعفة، كان في طليعة المهمات التي ألقيت على عاتق الرسول.

ومن هنا فإن الخطاب الأول من قبل موسى لفرعون كان دعوة صريحة إلى إطلاق حريات الشعب الإسرائيلي ورفع أغلال الكبت والإرهاب عنهم: (فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ)!

وهل (العمل السياسي) غير هذا؟

١- سورة طه: ٤٠ - ٤٨.

فما بال تلك الحفنة التي تتظاهر بـ (الدين) و (التقدس) تصرخ في كل مكان: بأن الدين لا شأن له بالسياسة؟!

ما بالهم يرددون: بأن على رجل الدين أن ينتقل بين البيت والمسجد، وإذا تجاوز هذا النطاق فإنما ينبغي أن يكون ذلك لعيادة مريض، أو تشييع جنازة!! وليس أكثر من ذلك!

ما بالهم يقولون: إن مهمة رجل الدين تنحصر في صلاة الجماعة، وبيان بعض مسائل الطهارة والنجاسة، أما السياسة فهي كفر، وشر، ونفاق، وأن على رجل الدين أن لا يلوث نفسه بأعتابها الدنسة (١).

ألم يكن موسى رجل دين؟ ألم تكن أول كلمة قالها (دعوة تحرير سياسية)؟!

فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً؟! (٢).

(٢)

يقول القرآن الكريم: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَة) (٣).

قال في الميزان: (والقبلة في الأصل: بناء نوع من المصدر كجلسة، أي: الحالة التي يحصل بها التقابل بين الشيء وغيره فهو مصدر بمعنى الفاعل. أي: اجعلوا بيوتكم متقابلة يقابل بعضها بعضاً وفي وجهة واحدة) (٤).

وعلى هذا، فإننا نستفيد من هذه الآية الكريمة درساً عظيماً في أسلوب العمل، وهو:

إن على (الفئة الرسالية) أن تقوم في مراحلها الأولى بـ (الانغلاق الموقت) من المجتمع الجاهلي الذي تعيش فيه، وأن تزيد من (التلاحم الداخلي) فيما بين أعضائها، حتى لا تتسرب إليها سلبيات المجتمع الجاهلي الكبير، وحتى تستطيع أن تبني نفسها بشكل قوي، ورصين، تماماً كما تنغلق البذرة على ذاتها في التربة، وتمتص كل الأملاح والعناصر الضرورية للحياة، وبعدئذ تخرج من التربة عالية الرأس، جميلة القوام.

وهذا هو ما مارسته الحركات الناجحة على امتداد التاريخ البشري.

وهذا هو أيضاً ما مارسه بنو إسرائيل بأمر من موسى (عليه السلام)، في خلال مراحل نموهم الأولى (٥) وكما يبدو لنا من خلال هذه الآية الكريمة.

انتهى

١ـ من الطريف أن نذكر هنا المنطق السقيم الذي كان يواجه به بعضهم الممارسات السياسية للإمام الخميني. كانوا يقولون له: (إنك تتحدث عن العامل والفلاح، وتدافع عن حقوقهما، والأحزاب الشيوعية هي الأخرى تمارس ذلك، فما هو الفرق بينك وبينها)؟!! وكأن المفروض أن يسكت رجال الدين عن الطبقات المهضومة، حتى يبتلعها الشيوعيون!

٢ـ للمزيد من التفاصيل راجع (الحكومة الإسلامية) للإمام الخميني.

٣ـ سورة يونس: ٨٧.

٤ـ الميزان: ج١٠، ص١١٤، ط٣.

٥ـ لقد تعرض القرآن قبل بضع آيات إلى أن بني إسرائيل كانوا في تلك الحالة فئة قليلة في طور التكوين حين قال: (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ) (يونس: ٨٣).